Digitized by Birzeit University Library

لمقدم الأطلنة ط
بيرزيت
من
ناصيف خوري
٥٩/١١/٢٨

اعلام الفكر العربي

١

ابو الطيب المتنبي

Digitized by Birzeit University Library

56184
892.7136
H992A
2SNE
161039
R
SPC
PJ
7750
.M8
Z42
1959
RBK

جوزف الهاشم

أبو الطيب المتنبي

دراسة ونصوص

الطبعة الأولى
٨٧٢٨
مكتبة جامعة بيرزيت
مكتبة كلية بيرزيت

منشورات
دار الشرق الجديد
بيروت

Digitized by Birzeit University Library

الطبعة الاولى
تشرين الثاني ١٩٥٩

Digitized by Birzeit University Library

تمهيد

كنت – في دراسة ابي الطيّب – بين ان اتناوله وفقاً للفنون الادبية التي طرقها ، او ان اتتبّع مراحل حياته واحداثها وما كان لها من اثر في ادبه وفي شخصيته .

وعلى ميلي الى الطريقة الثانية لأنها ألصق بنفسية الشاعر ، فقد اخذت بنهج يجمع بين الاثنتين معاً على اساس الفنون . وذلك لسببين : الاول ، لان الدخول في دقائق ما تعتلج به نفس طموحة قلقة ، غنية بالانفعال والخطوب كنفس ابي الطيب ، يستغرق مجلداً تضيق به حدود هذه المجموعة ؛ والثاني ، حرص على ان تظل الدراسة منسجمة مع المناهج الرسمية لمادة الادب . فان اكثر البلدان العربية تفترض صراحة درس فنون المتنبي الشعرية من مدح وهجاء وحكمة ووجدانيات الخ ..

ورأيت ان اقسم شعره باعتبار الدوافع التي حركته ، والاشخاص الذين توجّه اليهم . فالحقت الرثاء مثلاً ، رغم غنائيته ، بشعر القصور والمناسبات . ذاك ان الشاعر – وان صدر فيه احياناً عن شعور متألم عميق – ما عالجه الاّ استجابة لغرض

Digitized by Birzeit University Library

اجتماعي او سياسي يمت الى سيد القصر بصلة .

وافردت للمدح باباً واسعاً ، لا لأهميته من حيث الـــكم وحسب ، بل لما فيه من خصائص تجعل الشاعر نسجاً خاصاً في هذا المجال : فيه روحه الحكمي والملحمي ، وفيه ثورته النفسية على الدهر والناس ، وفيه عنفوانه وكبرياؤه ومشاركة الممدوح ، وفيه تصرّفه البارع بالصور والمعاني .

رائدي الحق . والله وراء كل قصد .

جوزف الهاشم

Digitized by Birzeit University Library

باب الرشوة واسعاً لوظائف الدولة. وهذا الخاقاني ينقد ام الخليفة المقتدر مئة الف دينار لتعينه في الوزارة ثم يدفع لها بعد اشهر خمسين الف دينار اخرى لترفع عنه خطر العزل.

انهارت المقاييس الخلقية، فحلّ الكيد والاثرة محل الرفيع من القيم حتى ليُرى الولد يكيد لابيه لقاء دريهات. وهو ذا ابن مقلة، وزير الراضي وقائد حملته، يترك ملاحقة لحمدانيين في الموصل ويعود مسرعاً الى بغداد اثر رسالة من ابنه تزعم ان مؤامرة تدبَّر في الخفاء. ولا مؤامرة هناك، بل عشرة آلاف دينار قبضها الولد العاق من انصار حمدان ثمن الكذب والخديعة.

فاذا اضيف الى ذلك:

تجارة الرقيق واستباحة اللذائذ على انواعها،

ومزاحمة القيان والسراري لسيداتهن من ربّات القصور،

وضعف الشعور الديني فتكثر دعاوى العلوية والمتنبئين[1]

ورسل المادية الملحدة كالرازي والراوندي، ويقوم صراع بين المذاهب فيساور الشك النفوس،

وترويع اقتصاد الدولة وامنها بغارات الاعراب والقرامطة[2]

---

(١) جاء في حوادث ابن الاثير سنة ٣٠٣ انه ظهر في الجامدة رجل ادعى العلوية فقتل العامل ونهب الخراج. وانه ظهر سنة ٣١٢ في الكوفه رجل زعم انه اسماعيل بن جعفر الصادق فقتل في دعوته خلق كثير. كما ظهر في سنة ٣٢٢ اثنان ادعيا النبوة، احدهما في بغداد وقد قال بحلول الالوهية فيه.

(٢) كانت غزواتهم للكوفة متتالية: فقد اغار عليها الخوارج مرتين والقرامطة سبع مرات بين عامي ٣١٢ و ٣٢٥ هـ.

Digitized by Birzeit University Library

ينشرون الهول والرعب ؛ وقد اصاب الكوفة في عهد ابي الطيب من ذلك شيء كثير ،

وانقسام الناس في الثروة قسمة طبقية تزرع الكره والثورة ، من تطرف في الفقر والبؤس الى تطرف الغنى والرفاه ؛

اذا اضيف ذلك كله عُرف في اي جو كان مولد مترجمنا وفي اي مناخ كان يتنشق الحياة والطموح .

الحياة الفكرية

العراق في عهد بني العباس اكثر بلاد الاسلام خليطاً واوسعه ثقافة . فيه ملتقى الحضارات والامم ، وفيه مركز الصهر والمزج بين فلسفة اليونان وعلمهم ، وحكمة الهنود وطبّهم ، وادب العرب ولغتهم . نُقل تراث الفكر القديم في عهد المأمون ، ولكنه ما دُرس وشُرح ، ولا نضج واثمر إلا في القرنين الثالث والرابع فكانا عهد الجنى الخيّر لاخصاب العقل والادب .

وقد حفل عصر المتنبي باسماء ضخمة في شتى مناحي النشاط الفكري ؛ فالفارابي من فلاسفته ، والرازي من أطبائه ، والأشعري من أئمته ، والجنيد والحلاّج من أعلام متصوفيه ، واخوان الصفاء من رواد نهضته ، وابن العميد والهمذاني وابن عباد من كتابه ، وابو فراس والمتنبي من شعرائه ، وابن دريد والسرّاج والأخفش وابن فارس من أئمة النحو واللغة فيه .

واذا كان تصدُّع الخلافة قد أساء من حيث السياسة ووحدة الامة ، فانه كان على غير ذلك من حيث الأدب . ذاك ان الامراء

Digitized by Birzeit University Library

عصره

بين الاديب وعصره تفاعـــل وصراع ، حدّهما من الغزارة العنف حدّ ما في الذات من جرأة واعتداد . وقلّما نشأ بين لاديب وعصره سلام دائم او هدنة مستقرّة ؛ ذاك ان للأديب جواً خاصاً يخلقه لنفسه ويعيش فيه . يلوّنه بما شاء من اصباغ ، يضفي عليه ما راقه من خلق وابداع شرط ان لايصدم ما ألفته عامة من اجواء... وإلا فويل له من بيئته وويل لبيئته من لسانه .

ورجال الادب في مواقفهم من الحياة صنوف :

منهم من تهزّه الاحداث فيستسلم لها منطوياً على ذاته ، شاكياً ألماً ؛ في أدبه نجوى الفؤاد الكسير وصرخة الالم والحرمان . من هؤلاء ابن الرومي وامثاله .

ومنهم من يقف امام الصروف شامخاً متمرداً ، يعمل للغلبة والتفوق فيهدم ويبني ليفرض نفسه على العصر مصلحاً على مقاس ما يهم البناء والاصلاح . ومن هؤلاء جبران خليل جبران ، ولي الدين يكن .

ومنهم من يصمد على ألم وعنفوان . يحمل في النفس ثورة على

Digitized by Birzeit University Library

الحياة والاوضاع تجيش ناقمة هادرة ، تلين حيناً لتعنف مراراً ، ولكنها تستعلي على الغير في كل آن . ومن هؤلاء ابو الطيب المتنبي .

واذا كان لنظرية تان[1] ان تجد تطبيقها في ادبنا القديم ، فان خير من يستجيب لهذا النداء اثنان : ابن الرومي وابو الطيب ، لما قام من علاقة وثيقة بين عصرهما وما انتجاه من ادب .

الحياة السياسية :

كانت الخلافة العباسية في اواخر القرن الثالث ومستهل الرابع للهجرة في حالة من الفساد والتفكك مريرة . السلطة المركزية في بغداد اضعف من ان تفرض الهيبة على العاصمة بالذات ، بعد ان طغت الحاشية وسادت الفوضى ، وعبثت بمصلحة الدولة مطامع القادة والجنود واهواء الخدم والنساء . فاستبد الاعاجم بالحكم ، وطمع العمّال بما في ايديهم من ثغور وخراج ، فاعلنوا العصيان وانشأوا الحواضر والامارات ، بعضها يرتبط صورياً ببغداد ، وبعضها يناصبها العداء ، وكلها تعمل للتوسع على حساب الخلافة الضائعة . فاذا كل قوي طموح تحدثه نفسه بالسيطرة والاستيلاء ، واذا الرقعة الاسلامية ممزقة الى دويلات : البويهية في فارس وبغداد ، والاخشيدية في مصر والشام ، والحمدانية في الموصل

---

(١) هيبوليت تان في كتابه عن لافونتين واساطيره ، يعتبر الشاعر اثراً من آثار الجنس والبيئة والزمان .

Digitized by Birzeit University Library

وحلب[1]، والسامانية في خراسان وماوراء النهر، والقرمطية في البحرين واليمامة.. الخ. والى جانب هذه الدويلات تصطرع فيما بينها مؤامرات تحاك وثورات تنشب، وعدو خارجي يتربّص على حدود الشمال. جيوش الروم تزحف موجة تلو موجة فتحرق وتدمر في تخوم العرب، واذا حجزها الحمدانيون حيناً فلتطفى بعد ذاك حتى تصدم جدران حلب وتغرقها بالحديد والنار وتوشك ان تقضي على آل حمدان.

والخليفة في هذا الخضم قلق خائف. يشك باخلاص العرب

---

(١) **البويهية** : «نشأت دولة بني بويه في اوائل القرن الرابع الهجري؛ وتعاون الاخوة الثلاثة علي والحسن واحمد على التسلط في فارس والعراق فاستولى اصغرهم احمد على بغداد سنة ٣٣٤ وكان بها الخليفة العباسي المستكفي بالله فنحهم الولاية على ما بأيديهم ولقب علياً عماد الدولة، والحسن ركن الدولة .. وتشعبت اماراتهم وبقي ملكهم في العراق الى سنة ٤٤٧ حين استولى عليها السلاجقة» عبد الوهاب عزام، ذكرى ابي الطيب.

الحمدانية : عربية تنتهي الى قبيلة تغلب ـ ولي ابو الهيجاء الموصل والجزيرة سنة ٣٠٢ في عهد المقتدر ـ اشهر ملوكها : ناصر الدولة وقد عين امير الامراء ودام له ولاسرته الحكم في الموصل وديار ربيعة ومضر حتى سنة ٣٨٠ ـ وسيف الدولة وقد ملك حلب وحمص واستمر حكمه وذريته الى سنة ٣٩٤.

الاخشيدية : من اصل فارسي وقد ولي مؤسسها محمد بن طغج الرملة ودمشق من قبل الخليفة المقتدر سنة ٣١٦ ثم ضم اليه الراضي ولاية مصر ولقبه بالاخشيد (اي السيد باللغة الفارسية) ـ استمر حكمها على مصر الى ان خلفها الفاطميون سنة ٣٥٨ ـ اشهر امرائها محمد وكافور.

Digitized by Birzeit University Library

فيحذرهم ويبعدهم ما استطاع عن شؤون الملك ، ويصدّ خطرهم المزعوم بأن يمكّن للفرس والـترك من قضايا الدولة . ثم يخشى نفوذ هؤلاء ، فيسلس لهم قياده ويقنع بمراسم الحكم الظـاهرة . وربما سُلب هذه المراسم شأن المتقي الذي عين القائد الديلمي «توزون» اميراً للامراء ولكنه خاف على نفسه فهرب الى الموصل ولم يعد الى دار الخلافة الا بعد ان نال منه الأمان . بيد ان الوزير نقض أمانه فعزل المتقي وسمل عينيه . وكثيراً ما تـكرر مثل هذه الحادثة « حتى استحال الخليفة ـ يقول سامي الكيالي ـ اشبه بصنم في متحف ، لا رأي له ولا نفوذ ، اقصى امنياته أن لا يُمثّل به كما مُثل بأسلافه » .

الحياة الاجتماعية :

لا يقوم مجتمع صالح الا على مزيج مؤتلف من سياسة رشيدة ، وعدالة شاملة ، واقتصاد سليم وخلق قويم . وما احوج الفـترة التي نؤرخ لها الى كل هذه العناصر ، وقد جرها فساد السياسة وضعف الحكام الى اضطراب في مختلف مرافق الحياة .

راح الكبراء والمتغلبون في كثير من الامصار ، يفرضون الضرائب بغير حساب ويجبونها بعسف وظلم . همّهم ارضاء الخليفـة ومن حوله من الاعوان ، وكنز الدينار ـ عصب المجد آنذاك ـ لليوم الاسود العصيب ؛ لا فرق عندهم اجاء ذلك عن طريق الحق ام في سبيل الغصب والعدوان . فراج سوق المكر والخداع ، وقام سوء الظن مقام الثقة والتعاون بين السلطات والرعيـة ، وفُتح

Digitized by Birzeit University Library

المتنافسين جمعوا حولهم طائفة من الشعراء تنشر صفاتهم وتسجل مآتيهم وتكون لهم بمثابة « مكتب دعاية » . وربما كان سيف الدولة الحمداني اكثر الامراء احتفاء بالشعر ورجاله حتى قال فيه ابن خلّكان : لم يجتمع بباب احد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر .

وهكذا نشأت عواصم للادب في بغداد وحلب والفسطاط، تُقيّض لشاعرنا ان يتصل بها جميعاً وان يكون صفحة مشرقة في تاريخها الفني ، سواء أكان راغباً فمدح أم ساخطاً فهجا وأوجع .

Digitized by Birzeit University Library

سيرته

١ ــ حياته

في ضبط نشأته ونسبه غموض ، وفي تحقيق حياته واحداثها اضطراب . أجمع النسّابون على اسمه وكنيته ، فهو احمد المعروف بابي الطيب والملقب بالمتنبي . كما اتفقوا على نسبته الى جعفى وعلى مولده في كِندة من محالّ الكوفة . ولكنهم اختلفوا بعض الاختلاف في غير ذاك : في اسم امه وابيه واجداده ، وفي عقيدته السياسية والدينية ، وفي عصبيته للقبائل ، وفي شعره وعبقريته .

فأبوه : محمد بزعم البعض ، وعبدان السقاء برأي غيرهم ، والحسين بنظر آخرين ؛ وجده : الحسن بن عبد الصمد ، او مرة ابن عبد الجبار ؛ وأمه : لا يُعرف اسمها ولا ابوها بل يُرجح انها همدانية من جهة الأم ، ويُشك فيما اذا كانت عربية او اعجمية من قبل ابيها .

ومما اوقع النقاد في هذه الحيرة صمت المتنبي في ديوانه ، فما تحدث عن ابيه وامه ، ولا جهر بأجداده شأن الفرزدق وابي تمام

Digitized by Birzeit University Library

وغيرهما من شعراء العرب ، ولا انتسب الى غير السيف والرمح والى « قومه » بوجه عام . حتى شك بعض الباحثين بصدق نسبه فجعله محمود محمد شاكر ابن احد كبار العلويين من زواج سرّي، واعتبر طه حسين ان « سراً من الاسرار يكتنف حياته ويحيط بأسرته ... وان مولده كان شاذاً وقد ادرك هذا الشذوذ فتأثر به في سيرته كلها[1] » .

وتحوّطُ المتنبي في الكشف عن دخيلته دفع دارسيه في طرق كثيرة الشعب والمسالك . فمن قائل انه قرمطي منهزم ، حانق على النظام السياسي والاجتماعي ، قائم بنشر دعوة القرامطة في الكوفة وبغداد[2] .

ومن مدّعٍ انه عرف آراءهم ولكنه لا مال اليهم ولا سلك طريقهم بل حمل في نفسه غماً لما انزلوه بالكوفة من عنف دلّل عليه يوم مدح سيف الدولة وذكر ابا الهيجـــاء وتقتيله القرمطيين في طريق مكة[3] .

ومن زاعم انه قحطاني لان جعفى من سعد العشيرة ... قحطان ؛ ومن منكر تعصبه للقحطانية لان جلّ ممدوحيه في ايامه الاولى من قبـــائل اليمن، بل هو يعجب باليمن ويعتز

---

(١) طه حسين : مع المتنبي ص ٢٥

(٢) ماسينيون في كتابه : المتنبي امام عصر الاسماعيلية ص ١٢ — وطه حسين : مع المتنبي ص ٤٧ و٥٤

(٣) بلاشير في كتابه : شاعر من القرن الرابع للهجرة — وعبد الوهاب عزام : ذكرى ابي الطيب ص ٢٥٧

Digitized by Birzeit University Library

بنخوتها : «أبت لك ذمّي نخوة يمنية ...

ولست الآن في سبيل تحقيق تاريخي حول هـذه الشؤون ولكنها لمحة عارضة للتدليل على ما يكتنف نشأة المبي الطيب من اضطراب لا يضير عبقريته في شيء وان ترك بعض الاثر في نفسيته وفي اتجاهات دارسيه .

أ ـ مولده ونشأته

(٩١٥ - ٩٣٣ م ٣٠٣ - ٣٢١ هـ)

في حدود سنة ٣٠٣ للهجرة ، وفي محلة كندة من الكوفة ، ولد احمد بن الحسين بن الحسن الجعفي في بيت فقر وبؤس . كان ابوه يعمل بنقل الماء الى النـاس ويعرف « بعبدان السقاء[١] » . وقد استغلّ خصومه هذه الصفة وراحوا يلاحقونه بها - بعدان « ملأ الدنيا وشغل الناس » - على كثير من الهزء والايـلام . فيقول فيه شعراء بغداد :

عاش حيناً يبيع في الكوفة الماء
م وحيناً يبيع ماء الحيا . . .
متنبيكم ابن سقّاء كوفاني . . . . . .

نشأ محباً للعلم راغباً فيه ، فالتحق اول امره بكتّاب للعلويين في الكوفة يدرس اللغـة والشعر . وكان قويّ الذاكرة[٢]

---

(١) يرى بلاشير بالاستناد الى النزهة وتاج العروس ، ان لقبه « عيدان السقاء » وقد حرفت اللفظة فقلبت الى عبدان .

(٢) جاء في اخباره انـه حفظ في مجلس وراق في وقت قصير عشرين ورقة من كتاب للاصمعي .

Digitized by Birzeit University Library

طموحاً ، فاختلف الى مجالس العلم ومكاتب الورّاقين يحفظ اشعار العرب واخبارهم ويعنى ببعض المذاهب قراءة وسماعاً . واشتدّ ساعده « فحمله ابوه الى الشام – كما جاء في يتيمة الدهر للثعالبي – فلم يزل ينقله من باديتها الى حضرها ، ومن مدرها الى وبرها ، ويسلّمه الى المكاتب ويردده في القبائل ، حتى توفي ابوه وقد ترعرع ابو الطيب وشعر ، وبرع . »

وكان ممن لقيهم واخذ عنهم في اللغة والادب : الاخفش ، والزجاج ، وابن السرّاج ، وابن دريد ؛ وممّن مدحهم ونال رفدهم : محمد العلوي في قصيدة مطلعها : اهلاً بدار سباك اغيدها ...

– ويستدل من شعره ان خروجه من الكوفة كان بعد غزوة القرامطة سنة ٣١٦ وانه انتقل الى بغداد فأقام بها قليلاً ثم انصرف عنها وفي النفس ثورة على الناس الذين يتملقون العظماء ، ولا يقدّرون المرء الا بما ملكت يداه من نضار .

ب – في الشام : إمامة ونبوءة
(٩٣٣ – ٩٤٨م / ٣٢١ – ٣٣٦ هـ)

صبّت نفس الشاعر الناشىء الى ما يسدّ طموحه الى المجد والمعالي . ولِمَ لا ينهد للرتب وهو جريء القلب بارع اللسان ، والعصر عون على تحقيق اي مطلب يشدّ اليه صاحبه بعزم واقدام . هو لا يزال دون العشرين من سنيه ، ولكن روحه المتوثبة أنفت ان تشغل عن الجليل من الاعمال « ببيع الشعر في سوق الكساد » . وكانت الدعاوي كثيرة والنفوس متهيئة لها ، فاقدم الشاعر على دعوة علوية لاقت من القبائل ارتياحاً وسنداً ، وكاد

Digitized by Birzeit University Library

بعظم خطرها لو لم يوقع به امير حمص فيعتقله زمناً ثم يطلقه بعد توبة واستكانة ، وشفاعـــة من الناس . وفي ذلك يقول التائب المتمرد ، معتذراً بعدم بلوغه الحلم :

دعوتك لما براني البـــلاء واوهن رجلي ثقل الحديد...
تُعجّل في وجوب الحدود وحدّي قبيل وجوب السجود

وهنا يبرز سؤال كان لاسم « المتنبي » ابعد الوقع في اثارته . هل تنبأ ابو الطيب ؟ وهل قام بدعوتين : إمامية في الكوفة ، ونبوية في حمص ؟!

جاء في تاريخ البغدادي : « ادّعى انه علوي حسني ثم ادعى بعد ذلك النبوة .. الى ان اشهد عليه اهل الشام بالكذب في الدعويين وحبس دهراً طويلاً واشرف على القتل . ثم استتيب واشهد عليه بالتوبة فأطلق » . وفي مكان آخر : « تنبأ في بادية السماوة ونواحيها الى ان خرج اليه لؤلؤ امير حمص فقاتله واسره وشرّد من كان اجتمع اليه وحبسه فاعتلّ وكاد ان يتلف .. ثم كتب عليه وثيقة اشهد عليه فيها ببطلان ما ادّعاه ، ورجوعـه الى الاسلام ، واطلقه » . وكانت هذه الرواية نقطة انطـــلاق لتبرير لقب المتنبي الذي لزم الشاعر والذي يفهم منه انه حاول النبوة فأخفق .

بيد ان الآراء لا تلتقي عند هذه القضية . اذ نجد جماعة من معاصري ابي الطيب وملازميه ودارسيه ، يذكرون سجنـــه لدعوة الامامة والخروج على السلطان ، ولكنهم لا يعرضون لنبوته ؛ واذا ذكروها فعلى سبيل الحكاية . يقول فيه الثعالبي :

Digitized by Birzeit University Library

« ويحكى انه تنبأ في صباه ». ولا يذكره ابن الاثير في عداد المتنبئين ؛ ويعلّق ابن جنّي في شرح الديوان : « كان قوم قد وشوا به الى السلطان في صباه ، وتكذّبوا عليه وقالوا له قد انقاد له خلق كثير من العرب وقد عزم على اخذ بلدك حتى اوحشوه منه فاعتقله وضيّق عليه ، فكتب اليه يمدحه . »

وشعر ابي الطيب لا يدل على محاولة النبوة ، بل يشكو في قصيدة الاستغفار من « الكاشحين » ومن « محك اليهود » ومن اتهامه « بالعدوان على العالمين » عدوان أخذ فيه بالنية فعوقب. والارادة غير الفعل والتنفيذ :

وكن فارقاً بين دعوى اردت
ودعوى فعلت بشأوٍ بعيد

وقد ظلّ على تنصّله طيلة حياته ، ولو كان الامر صريحاً لما استطاع له انكاراً .

اما لقب « المتنبي » فقد لزمه على الارجح لانه شبه نفسه بالانبياء في قصيدته الدالية :

انا في امة تداركها الله م غريب كصالح في ثمود
ما مقامي بارض نخلة الا كمقام المسيح بين اليهود

واستبدّ به القلق بعد هذه الحوادث ، فاذا به يصوّر نفسه ببيت جمع الى عمق الفكرة براعة التشبيه وصدق الصورة :

على قلق كأن الريح تحتي اوجّهها جنوباً اوشمالا

واذا هو يعود الى « بيع الشعر » ولكنه لا يتصل بأمير الا لينتقل الى غيره ؛ فاربى ممدوحوه في هذه الحقبة على الثلاثين

Digitized by Birzeit University Library

واشهرهم بدر بن عمّار في طبرية ، والحسن بن طغج وطاهر بن الحسين في الرحلة . وظل في مطافه الى ان حطّ الرحال عند ابي العشائر الحمداني والي انطاكية من قبل سيف الدولة امير حلب .

ج – في حلب : عند سيف الدولة (٩٤٨ – ٩٥٧ م ٣٣٧ – ٣٤٤ هـ)

بسم الدهر للشاعر الطريد يوم حلّ سيف الدولة على نسيبه في انطاكية ، فسمع من المتنبي شعراً صافياً ومن الامير ثناءً عليه فريداً [١] .

صحبه الى حلب فاقام لديه تسع سنوات ، منقطعاً اليه مرافقاً اياه في حروبه ، غانماً من أعطياته ما جعله ينعل افراسه عسجداً ويترك السرى خلفه لمن قلّ ماله . وقد احصي ما ناله في مدى اربع سنوات فبلغ خمسة وثلاثين الف دينار عدا الهبات والخلع . وعلى وفرة الشعراء الذين حفل بهم بلاط سيف الدولة ، فقد كان المتنبي شاعره المفضل حتى اتحد اسماهما فاذا ما ذكر الواحد في محافل التاريخ والادب ، قُرن به الآخر بيسر وطبعية . ومما يذكره صاحب الصبح المنبي ان الشاعر « اشترط على سيف الدولة اول اتصاله به انه اذا انشده مديحه لا ينشده الا واقفاً ، وانه لا يكلف تقبيل الارض بين يديه . فنسب الى الجنون .

---

(١) ترتقي معرفة سيف الدولة به الى سنة ٣٢١ ، وقد مدحه ابو الطيب آنذاك دون ان يتصل به بقصيدة مطلعها :

ذكر الصبا ومراتع الآرام جلبت حمامي قبل يوم حمامي

Digitized by Birzeit University Library

ودخل سيف الدولة تحت هذه الشروط » ×

× وكان لكبرياء ابي الطيب، وتعاليه على رجال البلاط وشعرائه، وايثار سيف الدولة له، ان يؤلب عليه الحساد ليوقعوا بينه وبين اميره. وقد اثمرت هذه السعايات يقوم بهـا رجال مقربون كأبي فراس وابن خالويه والنامي، فكانت جفـوة من المليك تبعتها حادثة أهين بها ابو الطيب[1] فترك حلب مغاضباً بعد ان استأذن في المسير الى اقطاع له « وامتدّ باسطاً عنانه الى الى دمشق اذ لم يجد بلداً اقرب اليه منها لأن حمص من اعمـال سيف الدولة. »

× صـدق ابو الطيب حـين وصف شعره فقال:

د – في مصر: عند كافور
(٩٥٧ – ٩٦٢م ٣٤٦ – ٣٥٠ هـ)

قوافٍ اذا سرن عن مقولي وثبن الجبال وخضن البحارا

فقد سبقته شهرته الى دمشق وبغداد والفسطاط، وعمّت ارجاء العالم الاسلامي، واصبح العظماء يتنسمون اخبـاره ويترقبون وفوده. وإذ حلّ في دمشق، اكرمه واليها اليهودي ابن ملك ورغب اليه ان يمدحه ولكنه « التحف برداء الكبر ». ثم نبت به دمشق – كما جاء في الصبح المنبي وشرح ابي العلاء – فسار منها الى الرملة « فحمل اليه اميرها الحسن بن طغج هدايا،

(١) مر الشاعر بأزمتين في مجلس سيف الدولة. الاولى حين رماه الامير بدواة أثناء انشاده قصيدته: واحر قلباه. والثانية حين لـكمه ابن خالويه بمفتاح – اثر مناقشة لغوية – فلم ينتصر له سيف الدولة.

Digitized by Birzeit University Library

وخلع عليه ، وحمله على فرس جواد بموكب ثقيل ، وقلّده سيفاً محلّى ، وسأله المدح فاعتذر اليه بأبيات [1] ... واتصل به ان كافوراً يقول : اتراه يبلغ الرملة ولا يبلغ الينا ؟ ثم كتب له من مصر يستدعيه الى حضرته فلما قدم عليه اخلى له داراً ووكل به وخصّه بأن يدخل عليه وفي وسطه سيف ومنطقة ، ويركب بحاجبين من مماليكه وهما بالسيوف والمناطق » .

ومكث المتنبي في مصر اربع سنوات ونصف ، يطمع بولاية ويلحّ في طلبها ، « والاستاذ » الداهية لا يعده ولا يمنعه ، وكانت فترات غام فيها ما بينه وبين الامير فانقطع عن مدحه اشهراً واستأذنه في مديح ابي شجاع فاتك واقام على غصص واحتراز . وملّ الانتظار ، وآلمته افتراءات تأتيه من حلب وحمى خبيثة تنتابه ، وشعر ان كافوراً يريد به شراً ويضيق عليه ليحول بينه وبين الرحيل ، ففرّ من مصر يستره الليل ويعاونه بعض الانصار . وتبعه الجند ، وترصّدته القبائل ، ولكنه سلك طريقاً وعراً فنجا عائداً الى الكوفة ودويّ هجائه في نفس كافور والمصريين مؤلم مرير .

٥ - في العراق وفارس - مقتله (٩٦٢ - ٩٦٥ م ٣٥٠-٣٥٤ هـ)

خيّل الى الناس أن ابا الطيب مقبل على فترة هدوء واستقرار . فثورة الشباب العاصفة لا بد ان يخمد اوارها ، ورغبة الطواف والجدّ لا بد ان تستريح . ثم هو بعد ذاك يرتع بشهرة ما وصل

(١) كان الشاعر قد اتصل به ومدحه سنة ٣٣٥ بعد مغادرته بدراً بن عمار .

Digitized by Birzeit University Library

اليها شاعر ، وبثروة قلّ ان حلم بها اديب . ولكن في النفوس القلقة ما يدفعها دوماً الى الحركة والزيد ؛ فكأن بينها وبين الراحة والقناعة عداء .

اقام في الكوفة مدة واشترك بردّ غزوة القرامطة وبني كلاب ، ثم مال الى بغداد والحكم فيها للبويهيين . ولكنه قبض مدحه عنهم وعن المهلبي وزيرهم ، فأغروا به شعراءهم امثال الحاتمي وابن سكرة وابن الحجاج الذين ناظروه واقذعوا في هجائه فلم يرد عليهم ازدراء لشأنهم بل اجاب من سأله في ذلك : لقد فرغت منهم بقولي لمن هم ارفع طبقة وشاعرية :

أفي كل يوم تحت ضبني شويعر ضعيف يقاويني قصير يطاول

وقفل الى الكوفة ليجد رسول سيف الدولة وهداياه، ودعوة ملحة للرجوع الى حلب والى صفاء الامس ، فردّ شاكراً بلامية طويلة يستفاد منها قصده عاصمة حمدان :

كلما رحبت بنا الروض قلنا حلب قصدنا وانت السبيل

ثم وافاه نعي خولة ، اخت الامير « وستّ الناس » فأرسل يعزيه بقصيدة :

يا اخت خير اخ يا بنت خير اب كناية بهما عن اشرف النسب

وللمرة الثانية هاداه سيف الدولة ، وكتب بخطه يستدعيه فأجاب مؤمّلاً بالطاعة ، مذكّراً بما لقيه قديماً وبما يمكن ان يلقاه من وشايات :

فهمت الكتاب ابرّ الكتب فسمعاً لامر امير العرب
وما عاقني غير خوف الوشاة وان الوشايات طرق الكذب

Digitized by Birzeit University Library

ولكنه لم يعد . بل قام الى ارجان تلبيـة لدعوة ابن العميد وزير ركن الدولة ، والى شيراز حيث عضد الدولة يراسله مترقباً زيارته .

وربَّ متسائل : لِمَ رفض دعوة حلب الملحَّة رغم حنينـه اليها ، مع ان السبيل امامـه ممهد وابا فراس خصمه الالدّ في سجن الروم ؟

والجواب على ذلـك : كبرياؤه اولاً ، وحالة سيف الدولة بالتالي . فقد ازعج الشاعر المرهف الحس ان يعود الى عاصمـة الحمدانيين بعد اخفاقه في مصر والعراق ، وبعد ان تركها مهدداً متوعداً ، وبعد ان عرض بسيدها في مدائحه بكافور . اما سيف الدولة فقد حال به الدهر خـلال هذه السنوات ، فألمَّ به مرض كاد يقعده ، واثار عليه احداثاً داخلية وثورات اليمة ، وغزاه الروم فتغلبوا عليه ودخلوا عاصمة ملكه فأحرقوا قصورها« واعملوا بها القتل والنهب والتدمير ستة ايام كاملة ، ولم يرفعوا السيف الى ان كلوا وضجروا » .

وآن للدهر ان يثأر من رجل كان حرباً عليـه طيلة نصف قرن ، فترصَّده قرب بغداد في طريق عودته الى الكوفة ليفجأه بفاتك بن جهل الاسدي[1] يحمل عليه بسبعين من رجاله . وصمد

(١) كان المتنبي قد هجا ضبة بن يزيد العيني ونال من عرضه ، مما احفظ فاتكاً خال ضبة فأقسم لينتقمن لاخته . ونقتطف من الصبيح المنبي مقاطع تروي مصرع ابي الطيب وما سبقه ورافقه من كبرياء واعتداد . قال على لسان ابي نصر الجبلي :

واتاني ابو الطيب ومعه بغال موقرة من الذهب والفضة والطيب

Digitized by Birzeit University Library

الشاعر الفارس ولكن كثرة العدد نالت منه فسقط مع ابنه محسّد وغلامه تحت ضربات السيوف ، وشهدت « الصافية » مصرع عبقري ضنّ عليه دهره بكرسي ولاية في حياته ، ليبوّئه بعد موته سدة الخلود في دنيا الشعر والأدب .

٢ — ديوانه

قلة هم الشعراء الاقدمون الذين اعتنوا بدواوينهم جمعاً وشرحاً وترتيباً عناية ابي الطيب . فقد كان شديد الحرص على شعره ، ينسخه في دفاتر تلازمه في اسفاره ، ويكثر « اشفاقه عليها لأنه قد انتخبها واحكمها قراءة وتصحيحاً » .

رتّبه ، فاسقط بعض المقاطع والابيات ، وامـلى شروح

والملابس والكتب الثمينة فتلقبته وانزلته في داري .. وقلت له ان هذا الجاهل فاتكاً كان عندي منذ ثلاثة ايام وهو غير راض عنك وقد تكلم بما يوجب الاحتراز والتيقظ ، ومعه ايضا جماعة من بني عمه يقولون قوله . والرأي عندي ان يكون معك من رجال هذه البلدة جماعة يمشون بين يديك الى بغداد . فقال : والله لا ارضى ان يتحدث الناس بأني سرت في خفارة احد غير سيفي . يا ابا نصر ، أبنجو الطير تخوفني ، ومن عبيد العصا تخاف علي ؟ والله لو ان مختصرتي هذه ملقاة على شاطىء الفرات وبنو اسد مطشون لخمس وقد نظروا الماء كبطون الحيات ، ما جسر لهم خف ولا ظلف ان يرده . معاذ الله ان اشغل فكري بهم لحظة عين . فقلت له : قل ان شاء الله . فقال هي كلمة مقولة لا تدفع مقضياً ولا تستجلب آتياً . ثم ركب فكان آخر العهد به ولما صح عندي خبر قتله ، وجهت من دفنه ودفن ابنه وغلمانه . وذهبت دماؤهم هدراً .

Digitized by Birzeit University Library

الغامض من المعاني والصور ، عندما قرأه عليه لغويون كابن جنّي والبصري وناقشوه فيه . جاء في مقدمة احدى النسخ : وجميع ما فيه من تفسير معنى وشرح غريب واختلاف لغة ، من املائه (والضمير يعود الى ابي الطيب) عند قراءته عليه . ولذا نجد قصائده بعد اتصاله بسيف الدولة مؤرخة بكل تدقيق ، ومقدّماً عليها بما يناسب ظروف نظمها .

اما عناية الادباء والمحققين بهذا الديوان ، فشاهدُها عند الواحدي احد كبار شرّاحه : « وانما دعاني الى تصنيف هذا الكتاب مع خمول الادب وانقراض زمانه ، اجتماع اهل العصر قاطبة على هذا الديوان ، وشغفهم بحفظه وروايته ، والوقوف على معانيه ، وانقطاعهم عن جميع اشعار العرب جاهليها واسلاميها الى هذا الشعر ، واقتصارهم عليه في تمثيلهم ومحاضراتهم وخطبهم ومقاماتهم ، حتى كأن الاشعار كلها فقدت . . . وهذا آخر ما اشتمل عليه ديوان ابي الطيب الذي رتبه بنفسه وهو خمسة آلاف واربعمائة وتسعون قافية » .

●

● **اشهر شراحّ الديوان** : ابن جنّي (القرن العاشر) ـ الواحدي (١١ً) ـ ابو العلاء المعري (١١ً) ـ العُكبَري (١٣ً) ـ الشيخان ناصيف وابراهيم اليازجي (١٩ً) في مجلّد عنوانه : العرف الطيّب في شرح ديوان ابي الطيّب . واكثر هذه الشروح مرتب على القوافي وليس على تاريخ نظم القصائد.

● طبع للمرة الاولى ـ تاماً مع شرحه ـ في كلكوتا ـ الهند سنة

Digitized by Birzeit University Library

١٨١٤ م – ١٢٣٠ هـ . اما اول طبعة له في لبنان ومصر ففي سنة ١٨٦٠ .

● اول من عرف المتنبي من المستشرقين ونشر له مقطعاً مع ترجمة حياته سنة ١٦٥٦ اغوليوس Gulius – ولكن القرن التاسع عشر كان خصباً في دراسة شاعرنا ونقل طائفة من شعره الى لغات الغرب مع امثال رايسك ، وسلفستر دي ساسي ، وهامر برغستال ، ونيكلسون وغيرهم . وربما كان كتاب بلاشير خير ما ظهر في هذا الباب . (١)

(١) بلاشير : شاعر عربي من القرن الرابع للهجرة : ابو الطيب المتنبي .
Blachère : Un poète Arabe du IV• s. de l'Hegire, About — tayeb al motanabbi —

Digitized by Birzeit University Library

الشاعر الذاتي

١ ـ الوجدانيات

وفؤادي من الملوك وان كان لساني يُرى من الشعراء ...
واذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الاجسام

تلك هي مشكلة الحياة عند ابي الطيب . اعطي همة ملك ولسان شاعر فما استطاع ان يلائم بين روحه وواقعه . نظر فيما حوله واذا رجال لا نصيب لهم من ادب وإقدام يدفعهم الحظ الى ذروة المجد والغنى بينما هو « يحث راحلتيه الفقر والادبا » ويطلب شيئاً من سيادة فيصدمه الاخفاق . فكانت ثورته على الدهر ، وكانت نقمته على الحظ والناس جميعاً . وهذه المعاناة النفسية والانفعالات رافقته كل ايام حياته ولكنها تركت طابعاً مميزاً في حقبتين من هذه الحياة .

أ ـ بين الكوفة وحلب : ابو الطيب في هذه الحقبة شاعر الشباب الطامح والفتوة الثائرة . تجيش نفسه بالعظمة فلا تجد

Digitized by Birzeit University Library

لهـــا منفذاً ، وتضيق بالدهر فلا تقدر عليه . واذا الشكوى وذم الناس خير متنفّس لما في الصدر من همّ مقيم .

وعلى كون هذه الظاهرة في طبع شاعرنا حتى ليبكي على شبابه وهو في ريق العمر ورونق الشباب ،

وعلى كون ظمأه الى الحياة ما ورد الا الويل والصروف :

أظمتني الدنيا فلما جئتهـــا مستسقياً مطرت عليّ مصائبا

فاننا قلما نجده رازحاً للألم مستكيناً ، بـــل هو ثورة دائمة لا يتورّع ان يفجّرها في معرض المدح والاطراء وفي وجه العظماء والملوك .

ثار على **الملوك** فهم « لحم على وضم » لا همة لهم ولا طموح . الرجولة عندهم في سبات عميق . يعتلون العروش وهم أحق من أوثان الجاهلية بصفع الرأس بالنعال ، وتنصاع لهم القادة والجحافل وهم أحقر من ان يهزوا في ساحة الموت والطراد حساماً . ومنهم من لو تمثـــل له ابو الطيب في المـاء لمات عطشاً ، ولو عرض له في النوم لجفاه الرقاد . فيتحرّق الشاعر صارخاً على مضاضة شاكية :

أيملك الملك والاسياف ظامئة والطير جائعة ، لحم على وضم

من لو رآني ماء مات من ظمأ ولو مثلت له في النوم لم ينم

ثار على **الدهر** يقسم الحظ بين الناس قسمة الظلم والجحود ، فيضنّ به على العاقل اللبيب ويغدقه على من لا يستحق شأناً ولا سيادة . أما ابو الطيب فأسهل عليه ان يجمع الماء والنار في يده من ان يجمع الفهم والحظ ، فكأن بينـه وبين الدهر ترات لن

Digitized by Birzeit University Library

يقعد عن تصفيتها بتحدّ وعنف :

ولو برز الزمان اليَّ شخصاً لخضّب شعر مفرقه حسامي

ثار على **الناس** فهم صغار الحلوم ضخام الجثث ؛ انهم «خلق» يخطىء من يستعمل في ندائها استفهام العاقل . هم « اهيل » زمن كريه . اعلمهم جاهل واحزمهم وغد لئيم ؛ اكرمهم كلب كَلِب وابصرهم أعمى العين والبصيرة ؛ اشجعهم قرد هرم واسهدهم فهد ينام الليل والنهار ، والمتنبي بينهم كالذهب بين التراب وكالانبياء بين من لا يعرف لهم قيمة ولا يقدّر سمو رسالتهم ونبلها . ينكر عليهم الرياء والمداجاة ويشكو فيهم الحقد والحسد ، ولكن آلم ما يؤلمه ان يجد نفسه مجبراً على مسايرتهم ، وما تلك اول قسوة من الدهر عليه :

ومن نكد الدنيا على الحر ان يرى عدواً له ما من صداقته بد

بيد ان هذه التجربة الشعورية التي حفلت بالالم الناقم فترة ما بين السجن وحلب ، لقيت بعض الهدوء في بلاط سيف الدولة فحلّ الفخر والاستعلاء محل الثورة ، حتى اذا ترك الشاعر بني حمدان وقصد مصر راجعته الشكوى مريرة متصلة ولكنها ذات لون جديد .

ب – في مصر :

بمَ التعلل ؟ لا اهل ولا وطن ولا نديم ولا كاس ولا سكن..

قليل عائدي سقم فؤادي كثير حاسدي صعب مرامي

صورة صادقة لنفسية ابي الطيب يطالعنا بها يوم كان في مصر

Digitized by Birzeit University Library

على قلق ومرض . ومع ان شعره إجمالاً في هذه البلاد أشبه بمرآة تنعكس فيها روحه وأمانيه ، فقد انصرف عن المناسبات الرسمية مرتين ليقف امام نفسه ويكشف القناع عما يعتلج في حناياها من شؤون وشجون . الاولى يوم اصابته الحمى وثقل امرها عليه ، والثانية اذ بلغه انهم نعوه حقداً وانتقاماً في بلاط سيف الدولة .

كل ما اعدّته له الحياة في الفسطاط كان على غير ما يشتهيه . حياة هادئة تقرب من الرتابة والخمول وهو الذي «تعوّد ان يغبّر في السرايا » وما اطاق الا النشاط والحركة رفيقاً . مضض يقيم عليه مكرهاً مأموراً وهو الذي ماتنكرّ له بلد إلا وغادره تاركاً في الصدور اسفاً وندماً . امل عاش له الشاعر وغذاه كافور بالوعود العذاب لينكشف بعد ذاك عن خيبة مرّة ، ومطل ونفاق . حمّى خبيثة : حيّة لا تزور الا في الظلام ، صادقة لا تخلف وعدها ـ وما اوجع الصدق ان كان يحمل الضرّ والعذاب ـ اليفة لا تبيت الا في الجلد والعظام . غربة يشتاق معها الاهل والوطن وينشد خليلاً يسكن الى وداده ويبثّه بعض ما يلقاه ، فلا يقع الا على خصوم وحسّاد يضنون عليه بزيارة تخفف من كربة المرض والعناء . الم لما ينقل اليه من صَغار الشعراء وحقدهم في بلاط حلب ومن تقوّلهم عليه غيبة وارجافاً : فهو عندهم تارة شقي بائس وسجين ذليل ، وهو مرة مريض مدنف لا يجد من يؤاسيه ، وهو اخيراً ميت ينعى امام سيف الدولة بشيء من الشماتة والرضا . ولكن خاب فأل الحاسدين :

Digitized by Birzeit University Library

ما كل مـــا يتمنى المرء يدركه
تجري الرياح بمـــا لا تشتهي السفن

وحسب ابي الطيب عزاء ، ان يكون موته امنية الذين شدّوا وراءه فأعياهم اللحاق :

كم قد قتلت وكم قد مت عندكم
ثم انتفضت فزال القبر والكفن

قد كان شاهد دفني قبل قولهم
جماعة ، ثم ماتوا قبل من دفنوا

ومثل هذه الحوادث والخطوب ، مُني به الشاعر في شبـابه فرأيناه يصورها لوناً طريفاً من الالم الشاكي ولكنه ألم عنيف فيه غضب وهياج وفيه بأس وعنفوان .

اما طابع وجدانيـاته في مصر — وقد انضج الالم فؤاده — فمختلف بعض الاختلاف . هو صرخة أسى عميقة ، ونفثات غنائية تشف عن حزن واغتراب . فيها انين الجرح والوجع وفيها كآبة تطبق على الصدر وتُشعر بالضعف والغصص فكأن ابا الطيب قد انهار امام نوائب الدهر . ولكنه لا يلبث ان يجد طبعه وأمسه ، فاذا بظاهرة الثورة والقوة تطل — وان على شيء من التشاؤم والارتياب — لتذكّر بأن شاعر الكآبة لا يزال شاعـر القوة وان ندّت عنه صرخة وآهة . وقصيدته في الحمى شاهد عدل على هذا الازدواج .

صوّر نفسه في حال المرض واذا بألمين يتنازعانه : باد ودخيل ، والدخيل اشد واعمق . انها ظروف الحياة في مصر يجبر عليها

Digitized by Birzeit University Library

فتحزّ في القلب وتدميه . واما الظاهر فهذه الحمى تفتك بالجسم ويضيق معها النفس فتوسع لها بانواع من السقام . واذا خفت لحظة فلتترك اثرها ضعفاً في الجسم تمتنع معه القدرة على القيام ، ودواراً في الرأس اين منه مفاعيل سكر الحميا ، وتنظّراً لجولة جديدة يرقبها كعاشق متيّم وهو عن الرغبة بها عازف ولمجيئها كاره . ويتساءل الشاعر كيف امكن لهذه النكبة ان تنفذ اليه من خلال زحمة المصائب التي حاقت به وملكت عليه السبل . ولكن لا بأس انه جرح يقع على جراح لم يبقَ معها موضع لسهم او لسيف . وما همَّ ان تقوى يد الدهر على البدن فتوهنه ؟ اليس الضعف في الجسم غير الضعف في الهمم !

فان امرض فما مرض اصطباري
وان احمم فما حمّ اعتزامي

واذن فليتماسك المتنبي وهو القائل في حديثه عن نفسه بمخاطبة كافور : « يغيّر مني الدهر ماشاء غيرها » . وليصمد امام قوىً طالما لقيها بالصبر والتجلد فكان النصر حليفه :

الدهر يعجب من حملي نوائبه وصبر نفسي على احداثه الحطم

وليطلب الحياة لا خوفاً من الموت وهو حتم مجاب ، ولا طمعاً في لذائذ الدنيا المألوفة وهي غرّة وجهالة ، بل شفاء لغليل صدره « بسير او قناة او حسام » انه يشتاق — وقد اضرّ به القعود والراحة — الى تصريف يده في عنان فرس او زمام ناقة ، ضارباً في البلاد لا عهيد له سوى ربه وسيفه ، نافضاً عنه غبار معركة

Digitized by Birzeit University Library

ليدخل في قتام حرب جديد .

وعلى قسوة طه حسين في كتابه « مع المتنبي » فانه لا يملك اعجابه امام هذا الشعر الوجداني وبخاصة قصيدة الحمى فيقول : « هذه الميمية التي قالها حين اصابته الحمى في مصر من ارق الشعر العربي كله ، واعذبه وارقاه ، واشده استثارة للحزن وتحريكاً للقلوب الحساسة الشاعرة . وقد اعجب القدماء بهذه القصيدة لان الشاعر قد برع فيها حين اراد وصف الحمى ، ولكني لا اكاد احفل بهذه البراعة الفنية او اقف عندها لان حزن هذا الشاعر العظيم قد تجاوز الفن وصار اعظم منه وابعد مدىً وانفذ الى القلوب والنفوس »[1] .

٢ ـ المفاخر

عدة الشاعر في مجال الفخر والمباهاة ، نسب عريق يعود اليه وصفات شخصية يبالغ بها لترقى الى الذروة من الكمال الانساني . وقد كان هذا الباب مادة عزيزة على قلب الشاعر العربي ، يقلّبها على وجوهها ويشعّب معانيها حتى تكاد تصبح اغزر الابواب واكثرها لصوقاً بنفسه وبشخصيته .

ومن عادة الشاعر ان لا يقصر فخره على ذاته بل يعطف الى اجداده وقومه ينبش ماضيهم ويعدّد امجادهم ويشيد بمواقعهم وابطالهم ، معتزاً بذلك شأن الفرزدق وابن كلثوم ، او الشريف

(١) طه حسين : مع المتنبي ص ٣١٩

Digitized by Birzeit University Library

الرضي الذي بلغ في ذلك درجة بعيدة :

هل عرّفت فيكم كفاطمة ام هل لكم كمحمد جدّ

اما ابو الطيب فالفخر في شعره صفة مسيطرة ، وموضوعه الغالب : ذاته . هذه الذات بكل ما تزخر بـه من قوى وتفور به من عجب واستعلاء . وقد تناول الفخر في مختلف فنونه من المدح والرثاء الى الوصف والغزل ، وافرط فيه حتى الادعـاء الفارغ والكبرياء المريضة .

وعوامل فخره كثيرة :

فهو يفتخر **بشاعريته** المحلقة تنقاد لها شوارد الكلم وروائع الفكر والخيال، فينبري لها الدهر راوية والخلود صدىً مردداً :

وما الدهر الا من رواة قصائدي

اذا قلت شعراً اصبح الدهر منشدا

عيال عليه سائر الشعراء الذين ليسوا سوى اصداء او زعانف واقزام . انهم يسهرون ليلهم بحثاً عن قافية ينهبونها وتظل قلقة نافرة. يتكاتفون لحجب ذكره، ولكن شعره في الآفـاق يشرّق ويغرّب ويصفع غرور المتطاولين:

ان هذا الشعر في الشعر ملك سار فهو الشمس والدنيا فلك

ولا غرو بهذه السيرورة فإن له من روعة الفصاحة واشراق البيان ما يعدّ معجزة تفتّح عليه العين العمياء والاذن الصماء :

انا الذي نظر الاعمى الى ادبي واسمعت كلـماتي من به صمم

ويفتخر بشموخه **وانفته** حتى لتأبى نفسه مساكنـة اللحم والعظم فلا تحدها حدود من مادة ، ولتنكر الاخ الشقيق ان لم

Digitized by Birzeit University Library

يكن انوفاً كريماً :

اطلب العز في لظـى ودع م الذل ولو كان في جنان الخلود

وكأننا امام عنترة الفوارس في طلب المجد والترفع عن الدنايا.

وبوفائه وصدق وداده يبذلها لمن ملأ قلبه وعينه ويعـــبّر عنها بمعنى شارد جميل:

خلقت الوفاً لو رجعت الى الصبا لفارقت شيبي موجع القلب باكياً

ويعتز **ببطولته** التي تتحدى الزمن لتقهره ، فترتدي الحديد قميصاً وتفترش صهوة الجواد وثيراً وترفع للبطش هيكلاً وعماداً:

وان عمرت جعلت الحرب والدة والسمهري اخاً والمشرفي ابـا

وبكماله وقد جعل منه خير من حملته قدمان فإذا بمجالس الرأي ومواقف الهول وانصباب الفكر شعراً رفيعاً في الطروس والاسماع كلها شواهد صدق وعدل تبعدعنه العيب والنقص بعد الهرم والشيب عن علاء الثريا. وما عليه ان خفي مرآه على جاهل لا يسمو اليه بصره ، او على اعمى تساوى عنده النور والظلام ؟ وما عليه ان ذمّه الغير – كائناً من كان هذا الغير – اذ متى كان النقص مغرماً بالكمال ؟ !

واذا خفيت على الغبي فعاذر الاّ تراني مقلة عميـــاء ...

واذا اتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامـل

ويقوده فخره الى المقارنة بين ذاته واشراف الناس فيخلص الى نتيجة هي الى العقيدة الراسخة اقرب منها الى تبجح الشاعر: « فلا احد فوقي ولا احد مثلي » .

Digitized by Birzeit University Library

ويجعل نفسه **محور الفخر** لآله وقومه ، ثم يستدرك ليجعلهم بحد ذاتهم فخر من نطق الضاد واغاث الطريد. ولا عجب في ذلك بعد ان استمعنا اليه يقول في صباه وقد ضاق عليه الزمان والمكان وهانت في عينه العروش وما خلق الله او امكن ان يخلقه ، كأنها شعرة في فوديه :

اي محـــلّ ارتقي اي عظـــيم اتّقي
وكل ما قد خلـق م الله وما لم يخلـــق
محتقـر في همـــتي كشعرة في مفرقي

وكأنما شعر بغلوه في ازدراء الغير وتقديس الذات فقام يبرىء نفسه بما يصل الى اقصى حد من الغرور والكبرياء :

ان اكن معجباً فعجب عجيب لم يجد فوق نفسه من مزيـد

والذي يلاحظ ان فخره مر بمرحلتين :

طور الشباب ، وكان فيه عنيفاً على هوس وغرور . مـلىء بالطعن والضرب ، وتشبيه النفس بالانبياء ، واحتقـــار الانام والثورة عليهم ؛

وطور الكهولة ، وقد ظهر فيه اكثر رصانة واعتـــداداً بالشعر والعظمة . ولكن فخره في كل حال ، صادق في التعبير عن اهوائه « لانه يرضي طموح نفسه وألمها ونقمتهـــا ، فيترك صورة دقيقة لنفس ذاقت نشوة الامل والم الخيبـــة ، ومرارة اليأس واندفاع الثورة » .

Digitized by Birzeit University Library

٣ ـ الغزل

تركنا لاطراف القنا كل شهوة فليس لنا الا بهن لعـــاب

شهوة مجد وقوة احسها ابوالطيب فملكت عليه نفسه وحياته، وخنقت فيه كل ميل الى ما يعتبره ضعفاً ولهواً . وما العشق ؟ انه غرور وطمع ، غفلة وانخداع بمظهر باطل في وجه حسن . واذا كانت قلوب الشبان مرتعاً لحب الغواني ورميّة لسهامهن ، فغير المتنبي ينصب من قلبه هدفاً لسهام العيون :

وغير فؤادي للغواني رمية وغير بناني للزجاج ركاب

واذا كان محباً للبيض والسمر معاً، فانه يكني « بالبيض عن مرهفاته وبالسمر عن سمر القنا » .

هو لا يتشبب بشخص معيّن ولا يذكر زوجته في ديوانـه ، وهو لا ينصرف الى مجلس اللهو والطرب فيمجن ويتعهر لان « معاطاة الصفائـــح والعوالي » احلى لديه واعذب من معاطاة الكؤوس، وهو يثور على الطريقة التقليدية التي تفترض الغزل في مستهل كل قصيدة مدحية لان هذا الغزل المفتعل لا بد ان يكون كاذباً متكلفاً :

اذا كان مدح فالنسيب المقدم اكلُّ بليغ قال شعراً متيَّم ؟

ولكنه مع ذلك ما استطاع التهرب من هـــذه الطريقة ، فجاءت قصائده المستهلة بالنسيب تفوق الخالية منه عدداً .

ليس له من طبعه اذن نزوع الى الغزل . بيد انه تناوله من باب التفنن في بعض لحات عارضة او في مقدمات المدائـــح ، فدلَّ على ان له من قوة الشاعرية وصفاء الخيال وطاقة الابداع ما

Digitized by Birzeit University Library

يجعله فيه متصرفاً مجيداً وان على غير ميل او عاطفة . من جميل معانيه قوله في تصوير نحوله وقد براه الوجد وشفّه حتى خفي عن العين فما يعرف الا بالخطاب والانين :

كفى بجسمي نحولاً انني رجل لولا مخاطبتي اياكَ لم ترني

ومن بديع صوره ، وصفه للحب وقد تسلسل مع كل قطرة من دمه :

جرى حبها مجرى دمي في مفاصلي
فاصبح لي عن كل شغل بها شغل

وهذا الاشتغال عن الحبيبة بها عند ابي الطيب ، انما هو التداوي عن ليلى بليل عند قيس المجنون ،وعن الخمرة بالخمرة عند ابي نواس . وقد اكثر شعراء العرب من طرق هذين المعنيين ، واعجب بهما ابن الفارض – شاعر التصوف والعشق الالهي في القرن السادس – فاخذهما وعاد اليهما في مواطن متعددة من ديوانه ، كما نقل البيت الاخير بحرفيته في قصيدةلامية شهيرة .

والمتنبي في غزله يفضل البدويات على الحضريات بما فيهن من طبيعية تبعدهن عن الجمال الحضري المتكلف وليد التطريات والمساحيق . فلعينهن ما يلقى فؤاده وما لقيَ من عذاب ، وفدىً لحبهن ما بقي من ايامه وما اندثر :

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب

ولكن التوفيق يخونه احياناً فنقرأ له غزلاً متكلفاًفيه ضعف واسفاف وفيه سخف كبير :

اذا عذلوا فيها أجبت بأنة حبيبتي،قلبي،فؤادي، هيا جل
لما وجدت دواء دائي عندها هانت علي صفات جالينوسا

Digitized by Birzeit University Library

شاعر القصور

١ – المديح

المديح – وبخاصة السياسي والاجتماعي منه – آلة تكسب وطلب رفعة . يعتمده الشاعر ليستدر به يدعظيم او ليلج قصر امير . ولا بأس في سبيل ذلك ان يتزلف ويتملق ، ويغرق ما طاب له الاغراق والمبالغة . ونادراً ما تنظم المدائح لمجرد الاعجاب بمناقب شخص ، دون ان يكون وراء ذلك رغبة في نوال يرجى او شكر على عطاء سلف .

عرف العرب هذا الفن منذ الجاهلية . لكنه ازدهر مع المثلث الاموي وبلغ غايته في عهد بني العباس . فكان قصر الخلافة مورد الشعر العذب ، وكان لقب شاعر الخليفة ارفع ماتطمح اليه الهمة وتتوّج به العبقرية آنذاك . وغالباً ما اقترن اسم الشاعر بامير ه فاذا قيل شاعر الامين ذكر ابو نواس ، او شاعر المعتصم قصد ابو تمام ، او شاعر المتوكل عرف به البحتري .

ودخل على المعاني القديمة المألوفة ما يتناسب والحضارة

Digitized by Birzeit University Library

الجديدة ومستلزمات الحكم . فهناك القصور والمدن وهناك البرك والسفن... يصفها الشاعر ثم ينتقل من المصنوع الى الصانع ليضفي عليه صفات الملك الكامل يحسن الادارة ويرعى العدل ، يحفظ الحدود ويبسط الامن والرخاء . بيد ان الطواف في هذه الصور والمعاني قاد الى التكلف والتكرار ، وحدّ من قدرة الشعر على خلق الفنون والاجواء ، فضاقت سبل الاختراع ونفد ما يمكن ان يقال في هذا الموضوع .

وربما كان من غريب الأمور أن نجد أبا الطيب فارس مديح بعد أن عرفنا تعاليه واعتداده، وازدراءه الملوك والناس جميعاً. وأغرب من ذلك ان يحصر أربعة اخماس ديوانه في هـذا الصعيد حتى يكاد لا يطرق فناً إلا من خلال هـــذا الباب ؛ فيجتمع في تضاعيفه خير ماعرف لابي الطيب من وصف وغزل وفخر وحكمة. فكيف يمكن التوفيق بين هذا الموقف وذاك ؟

نزوة وشكوى :

كان في نفس مترجمنا عطش الى المجد شديد ، ما استطاع ان يرويه عن طريق الثورة والأمامة فنهد الى المال يطلبه ليشدّ بـه شوطه الى العلاء :

فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله ولا مال في الدنيا لمن قل مجده

وليس له من وسيلة الا الشعر ، يبـذله على أبواب الامراء ، وذوي الرتب فيكسب به وجاهة ومكانة. فراح « يمدح القريب والبعيد ويصيد ما بين الكركي والعندليب » . يطرق المعـاني

مكتبة كلية بير زيت

Digitized by Birzeit University Library

التقليدية مع ميل الى التشديد على عنصري الشجاعة والكرم : الشجاعة لانها فطرة في نفسه وهوىً في نفوس الناس ؛ والكرم لانه من أبرز صفات المروءة عند العرب ومن أهم ما يقدره شاعر في ممدوحه . ولكن خاب اول الأمر ما رجاه ، فلا الصدق في شعره متوفر ولا الجوائز عليه مغرية . وهذا علي بن منصور يجزيه ديناراً واحداً على قصيدته : بأبي الشموس الجانحات غواربا... فتسمى الدينارية ؛ وهـــذا محمد بن زريق يصله بعشرة دراهم ثم يضاعفها بعد وساطة . فيزيد ذاك من نقمـــة الشاعر وثورته . ولكن ما حيلته إن لم يكن امامه سوى هذا السبيل ؟ ومن هنا جاءت مدائحه الاولى تزخر بالفخر الذاتي الذي يصل الى التهور وذم الدهر والناس ، مما يكاد يسلكها في باب الهجاء لا المديح . وما قولنا برجل يخاطب ممدوحه (المغيث بن بشر) :

ودهر ناسه ناس صغـــار وإن كانت لهم جثث ضخام
وما انا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام

او يمهّد لمدح قاضي انطاكية بقوله :

حولي بكل زمان منهم خلق تخطي اذا جئت في استفهامها بمن
ولا أعاشر من املاكهم ملكاً إلا أحق بضرب الرأس من وثن

واننا لنتساءل عن قدر هذين الرجلين بعد ان جعل هام الملوك موطىء نعال ، وسما بجوهره فوق الناس فلا يلحقـه الرجس والدنس من هذه الخلق اللئيمة الجاهلة ؟!

وكأني به يجيب : ويح هؤلاء الناس ؛ ألم اقل في احدهم[1] :

(١) علي بن منصور الحاجب .

Digitized by Birzeit University Library

هذا الذي أفنى النضار مواهباً وعداه قتلاً والزمان تجـاربا
كالبحر يقذف للقريب جواهراً جوداً ، ويبعث للبعيد سحائبا

وفي الآخر [1] :

لما سمعتُ به سمعت بواحد ورأيتـــه فرأيت منه خميسا
لو كان صادف رأس عازر سيفه في يوم معركة لاعيا عيسا

وقد غلوت في مدحهم حتى اتهمت بالشطط والجحود. وماذا لقيت بعد هذا كله ؟ لا انفتحت عقولهم على جمـال شعر ، ولا سخت نفوسهم إلا بدريهات .

صدق واخلاص :

وتقلّب من قطر الى قطر ، فاذا هو عند التنوخيين وآل طغج ، وعند بدر بن عمار وابي العشائر ، وعنـــد سيف الدولة وكافور وعضد الدولة . وله في كل هؤلاء مدائح ان عداها الصدق حيناً فما عدتها البراعة الفنية والروعة الشعرية في الصور والاداء .

وعلى وفرة مديحه فانه يقسم قسمين متماسين في الغـــالب : المديح الصادق المخلص ولا نعني به البعيد عن المغالاة بل الصادر عن اقتناع ذاتي بصفات الممدوح ؛ والمديح المصنوع الذي كان يستعمله وسيلة لبـــلوغ غاية ما دون ان يتأثر بشخصية صاحبه فيعتاض من الصدق المفقود تفنناً في العرض والمعاني .

واكثر ما يستهوي ابا الطيب عنصر القوة . وربمـــا كانت افخم مدائحه واصدقهـــا تلك التي قالها في جماعة ملكت من

(١) محمد بن زريق الطرطوسي .

Digitized by Birzeit University Library

الشجاعة والحزم قسطاً وفيراً فلاقت تجاوباً مع فطرته وتفاعلاً .
وبديهي ان يصدق شاعر يؤله القوة حين يرى رجلاً كبدر بن عمّار يهاجم الاسود في عرينها فتهرب ، او يلتقيها بالسوط كأنها احقر من ان يسلّ في وجهها حساماً . وما كان احد تلك الاسود سوى بلية وقعت على الاردن وطفرت منه الى الفرات والنيل؛ قصرت مخافته الخطى وتنكب المسافرون طريقه فخلت له البلاد لا يميز فيها بين الحلال والحرام وغدا لشدة صولته واعتزازه :

يطأ الثرى مترفقاً من تيهه فكأنه آسٍ يحس عليلا

ولكن هذا التيه لم يجده لدى ملاقاته القائد البطل ، فقد ظهر وكأنما هو مقيد تشدّ قبضة الموت على يديه وعنقه لتسلمه لبدر على ذلة وخنوع .

وهوذا سيف الدولة ـ وهو امير عربي صميم في غمرة السلطان الاعجمي ـ يلهب شاعرية المتنبي فيوقف شعره عليه تسع سنوات لا يقول في غيره بيتاً الا اذا اتصل به بوجه ما . رأى فيه مثال الرجولة الحقة ، ووجد في كنفه بعض الراحة والدعة ، فكفّ عن شكوى الزمن وحديث الثورة والفتك ، وراح يرسم له صورة مشرقة فيها الكثير من الصدق وان لم تخلُ من مبالغة واندفاع .

فهو الامير العادل يسوس رعيته بلباقة رجل الدولة ، يحسن الشدة واللين ويعرف مواقعها فتجمع عليه القلوب .

وهو المليك المسلّط تشرفُ به عدنان وتفتخر الدنيا ، وتقصده الملوك فاذا هي « تفارقه هلكى وتلقاه سجّداً »

Digitized by Birzeit University Library

وهو الاديب اللبق والبصير الحكيم يستبق الحوادث فيرى بقلبه اليوم ما يراه غيره غداً ، و يفوق الناس رأياً وحكمة كما فاقهم حالاً وشرف محتد .

وهو الكريم الجواد ، مال اعدائه نهب سيفه يخلعه على العفاة كالبحر درّه لكل طالب ، والغيث سيبه لكل بلاد .

وهو فوق هذا كله – بل قبل هذا كله – سيد السيف وامير الميادين. الحرب عادة فطر عليها ، وجيش الروم هدية تحمل اليه ، والسيف في يده فوق رؤوس المستكبرين دعوة الى الحق والشهادة.

يوم النجاة من عراكه تاريخ مولد جديد ، واثر التقائه الملوك جراح في وجوههم ، ورمد في عيونهم ، وثوب للترهب يعدّونه شكراً لربهم على الخلاص ، وتوبة عن الضرب والطعان .

المستحيل ، لديه شيء تافه فقرن الشمس مورد لخيله ان يشأ ! والمستقبل رهن إرادته ينوي فيصبح الامر نافذاً مفعولاً ، كفعل مضارع « مضى قبل ان تلقى عليه الجوازم » .

الدهر اعجز من ان يبزّه في حلبة الجلاد ؛ فما يغصبه هو من الايام هبة لا يطالب بها ، وما يناله الدهر في غفلة منه دين لا بد ان يرده طال الوقت او قصر :

تفيت الليالي كل شيء أخذته ، وهن لما يأخذن منك غوارم

براعـــة وتفنن :

وكان للشاعر من لقب الحمـداني عون على اكتشاف الصور ونظم المقارنات . فهو سيف الله المصلت على رقاب اهل الطيش

Digitized by Birzeit University Library

والزينغ ، وسيف العرب يستعيد لهم من المجد والعزة ما اندثر ، وسيف الدولة تهزه في وجه كل طامع غاصب . ولكن شتان بين هذا السيف وتلك السيوف ؛ فهي للقطع وحده وربما لحقها الكلال ، وهو من نوع فريد يجمع الى القطع حيـــاة وصلة : فالقطع للاعداء ، والصلة للاولياء ، والحياة لمن قتله الفقر واماته الذل :

وندعوك الحسام وهـل حسام يعيش به من الموت القتيل
وما للسيف الا القطع فعل وانت القاطع البر الوصول

واذا كان امير حلب سيف دولة الاسلام فغيره من الملوك بمنزلة الابواق والطبول لا غناء عندهم ولا نفع . وينقلب هذا التعريض الى تحريض مبطن على الخليفة . الا يخشى خليفة بغداد هذا السيف الباتر الذي تقلده ان يميل حده عليه ؟ واي غرابـة في ذلك :

فمن يجعل الضرغام للصيد بازه تصيّده الضرغـام فيما تصيدا

وخاصة اذا كان هذا الليث حامي حمى الدين والدولة ، يدفع عن البلاد غزوات الروم ويقيم من صدره حصناً يرد عن بغداد والشام عاديات الزمن :

كيف لا تأمن العراق ومصر وسراياك دونهـــا والخيول

ولو انـــه انحرف عن طريق الاعداء « لربط الخيل سدرهم والنخيل » ولدرى من يدعي الصولة والسيادة «فيهما انه الحقير الذليل » .

●

وتنبو حلب بشاعرنا فاذا به يتركها الى مصر يطلب عنـــد مليكها الاسود كافور ماعجز عن تحصيله من ولاية او امارة يحقق

Digitized by Birzeit University Library

بها بعض آماله . وفي النفس بين هـــذين العهدين ثورة وغليان : عتب على سيف الدولة واسف لفراقه ، سخط عـــلى الحساد والواشين ، شكوى من الحياة والناس ، نقمة على الحظ لا يبسم مرة إلا ليجفو مراراً .

هو بين يدي كافور ولكن حنينه الى سيف الدولة لا يزال قوياً . نلمسه في اولى قصائده بمصر زجراً للقلب والعين كي يكفا عن الميل الى امير حلب :

اقلّ اشتياقاً ايها القلب ربما رأيتك تصفي الود من ليس صافيا
واعلم ان البين يشكيك بعده فلست فؤادي ان رأيتك شاكيا

وما كان العبد ليملأ عين ابي الطيب . بيد انه مجبر على مدحه قادر ان يستر ضعف عاطفته بقوة فنه . وها هو يصور الخيـل وقد جدّت ليل نهار تجاذب فرسان الصباح اعنتها مسرعة نحو كافور ، ومع ذلك فان الشاعر يراها بطيئة ويحس قلبه راكضاً في صدره كأنما يريد ان يسبقها لشـدة الشوق . ولا عجب فهو يقصد انسان عين زمانه وبحر العطاء الدافق الذي جمع الله فيه كل المعاني :

قواصد كافور توارك غيره ومن قصد البحر استقلّ السواقيا

وما ابرعه في تكنية كافور بسواد العين وهو اشرف واثمن ما فيها ، بينما سائر الملوك لا تعدو المآقي (وفي هـــذا البيت وسابقه تعريض بسيف الدولة) :

فجاءت بنا انسان عين زمانه وخلّت بياضاً خلفها ومآقيا

جميل وصفه اياه بالشجاعـــة التي تزيل التساوي بين سيف

Digitized by Birzeit University Library

وسيف ، وتصويره شوقه الى الاهل ثم مقارنتهم بكافور فاذا هو اعذب في القلب واحلى ، يشعر الغريب انه لديه في خير حمىً واهل :

وكل امرىء يولي الجميل محبَّب وكل مكان ينبت العزّ طيّب

مكانته فوق العالمين وان ادناه منهم التواضع ، ومجده ثمرة جهد « وايام اشبن النواصيا » .

مدح ذو وجهين :

ولكن هذه البراعة – التي دفعت عمر فاخوري الى القول : « رفع المتنبي الكذب الى درجة العبقرية » – لا تنجده دائماً فتظهر له ابيات هي الى الهجاء اقرب منها الى المدح ، ممّا يحمل على الاعتقاد انا ابا الطيب تعمَّد ذلك تعمداً فجاء بشعر يحتمل المدح والذم معاً كقوله مثلاً :

انت اعلى مكانة ان تهنا بمكان في الارض او في السماء

ولو انه اكتفى برفع قدره فوق مراكز الارض قاطبة لهان الامر ؛ اما ان يجعله اكبر من ان يهنأ بمركز في السماء مهما علا ، فذاك يدعو الى الحذر وسوء الظن خاصة بعد ان يقرأ له :

يفضح الشمس كلما ذرَّت الشمس

م بشمس منيرة سوداء

ان في ثوبك الذي المجد فيه لضياءً يذري بكل ضياء

يا رجاء العيون في كل ارض لم يكن غير ان اراك رجائي

وان مجرد التفكير بهذه الشمس السوداء تفضح شمس الظهيرة

Digitized by Birzeit University Library

او بهذه العيون التي تقف رجاءها وأمانيها من الحياة على الاكتحال بوجه ابي المسك ، ان مجرد التفكير بذلك يثير بسمة لا تمتُّ الى احترام كافور بشيء . ولا يكتفي بهذا المديح المبطن ، بل يصوّره هُزأة تبعث الطرب في النفوس ويشتاقها الناس :

وما طربي لما رأيتك بدعة لقد كنت ارجو ان اراك فأطرب

وقد فطن ابن جنّي الى ان المتنبي اراد الاستهزاء فقال : ولما قرأت هذا البيت عليه قلت : جعلت الرجل ابا زنة (اي القرد) فضحك ولم يجب . كما تنبه ابن الفرات وزير كافور فقال : هذا هزء بكافور . واي مدح مثلاً في ان يقال للملك :

وما لك تعنى بالاسنة والقنا وجدك طعّان بغير سنان
ولم تحمل السيف الطويل نجاده وانت غني عنه بالحدثان

واذا قورن مدحه هذا بما جاء عنده في سيف الدولة :

حقرت الرديني حتى طرحتها وحتى كأن السيف للرمح شاتم
ومن طلب النصر الجليل فانما مفاتيحه البيض الخفاف الصوارم

ظهر تكلفه – واكاد اقول تهكمه بكافور – ظهوراً جلياً . قال المازني : « انه لم يمدح كافوراً لانه رآه اهلاً لمدحه بل طمعاً في ولاية بعض املاكه . وإنا والله نراه تهكم به ولم يثنِ عليه . وما قرأنا له قصيدة في كافور الا عثرنا فيها على بيت او ابيات تشعر بأن المتنبي كان يأخذه بالدعابة ويرى نفسه اجلّ واخطر شأناً من ان يمدحه [1] » .

وقدر لابي الطيب ان يتعرض لاثنين من رجالات مصر :

(١) ابراهيم عبد القادر المازني : حصاد الهشيم ص ١٣٥

Digitized by Birzeit University Library

ابي شجاع فاتك وقد كان خصماً لكافور ، وشبيب العُقَيْلي وكان والياً على عمّان من قبل الاخشيديين ثم ثار عليهم ودخل دمشق ولكنه سقط قتيلاً في موكب نصره دون ان يعرف لذلك سبب. فهل دارى الشاعر مليكه في هذين الموقفين ؟ لقد سلك في مدح ابي شجاع ما يشكل صفعة لكل مصري :

كفاتك ودخول الكاف منقصة كالشمس قلت وما للشمس امثال
تملّك الحمد حتى ما لمفتخر في الحمد حاء ولا ميم ولا دال

وماذا بقي لكافور بعد ان تنزه فاتك عن كل شبيه وملك الحمد من جميع اطرافه فصار وقفاً عليه ؟ ثم أليس في ذكر نعمه التي تفجأ بغير قول بينا نعمى الناس اقوال وحسب ، أليس في ذلك تعريض بكافور ووعوده ؟

اما قصيدته في التهنئة بموت شبيب فهي اقرب ان تكون تمجيداً لبطولة الوالي الثائر . وفي عرض ابيات ولو قليلة منها دليل على ذلك :

وما كان إلا النار في كل موضع تثير غباراً في مكان دخان
فنال حياة يشتهيها عدوه وموتاً يشهّي الموت كل جبان
وقد قتل الاحرار حتى قتلته بأضعف قرن في أذل مكان
اتته المنايا عن طريق خفية على كل سمع حوله وعيان
ولو سلكت طرق السلاح لردّها بطول يمين واتساع جنان

وقد تضايق كافور من هذه القصيدة وعندما بلغ ابو الطيب قوله : باضعف قرن ... علّق عليه : «لا والله بل باشدّ قرن في اعزّ مكان .

ولا شك انه كان لهذه المدحة ولسابقتها نصيب في تعكير ما

Digitized by Birzeit University Library

بين الشاعر ومليكه من مودة .

ورب متسائل : لِمَ تجشم الشاعر كل هذا العناء ، وتعرّض للمخاطر ليمدح من لا يستحق برأيه قدراً ولا مديحاً ؟ وجواب الشاعر على ذلك : وما شئت الا ان اذلّ عواذلي . وفي سبيل هذه الغاية جاب ابو الطيب « هجيراً يترك الماء صاديا » لا طمعاً بمال بل رغبة في ولاية ، وقلّما خلت له قصيدة من التلميح الى هذا الطلب « ففي النفس حاجات وفيك فطانة » :

وغير كثير ان يزورك راجل فيرجع ملكاً للعراقين واليا...

الى الذي تهب الدولات راحته ولا يمنّ على آثار موهوب

ثم لم يلبث بعد أن منّاه كافور وطال عليه ذلك ، ان شرع يذكّره بصراحة :

اذا لم تنط بي ضيعة او ولاية فجودك يكسوني وشغلك يسلب

عاملاً على بعث الثقة به لوضعه موضع التجربة :

اذا كنت في شك من السيف فابله فاما تنفّيه واما تعده...

وفؤادي من الملوك وان كان م لساني يرى من الشعراء

متوصلاً احياناً الى شيء من التذلل يدل على ان الضعف بدأ يتسرب الى تلك النفس الكبيرة وإن للحظات :

ابا المسك هل في الكأس فضل اناله فاني اغني منذ حين وتشرب

بيد ان هذا الضعف لم يطل . فقد خرج ابو الطيب من مصر يحمل النقمة على كافور ورجاله ويعتذر الى الشعر وقد تكلّفه في مدح الخصي وحمّله من الكذب والتملق ما لا يجوز وذلك نكاية بالناس وهجواً لهم :

Digitized by Birzeit University Library

فما كان ذلك مدحاً له ولكنه كان هجو الورى ...
وقد أُري الخنزير اني مدحته ولو علموا قد كان يهجى بما يطرى

والذي يلاحظ في شعر المتنبي بمصر انه يخلو من وصف الآثار المصرية ؛ فما توقف عندها إلا بذكر عارض وربما كان مرجع ذلك ان انصراف ابي الطيب الى نفسه ، والى عدم اهتمامه بالوصف الا اذا كان يتصل بالممدوح مباشرة (وصف الاسد عند بدر ، وصف القلعة عند سيف الدولة ، وصف الخيل عند كافور) .

اما الناحية الفنية لهذا الشعر فهو انه اذا كان قد خلا من عنصر القوة والجلالة وصدق الشعور ، فقد اعتاض من ذلك رقة وعذوبة وصفاء روح . قال احمد الشايب : «ليس في مدح المتنبي كافوراً هذه القوة القائمة على المبالغة وتوليد المعاني والموسيقى القوية ولكننا نستطيع ان نجد في العهد المصري ما يطبع شعر المتنبي بطوابع شتى جعلته من اخصب عهوده واحفلها بالتجديد والجمال . واول ظاهرة جمال هذا الشعر ورقته ، رقة فيها حزن باك وسخط شاك وألم عميق .

... وهناك فرق بين شعر قوي يصوّر الاطمئنان والحرية والرضا ، وشعر جميل يمثل الحزن وصفاء الروح وحنينها الى الخلاص . الأول شعر حلب ، والثاني شعر الفسطاط [1] » .

خصائص مدحه

بالاضافة الى ما رأينا من مميزات ، فان هناك طائفة من

(١) الشايب : ابحاث ومقالات ص ١٠١ و ١٠٢

مكتبة كلية بيرزيت

Digitized by Birzeit University Library

الخصائص يتفرد بها ابو الطيب او يوغل بها الى حدّ بعيد .

أ – وصف الحرب والجهاد : اروع ما يطالعنا به في مدائحه وصفه المواقع التي خاضها امير حلب ضد الروم فكانت جهاداً قومياً ينهض به امير قطر صغير في وجه اعظم وحدة دولية آنذاك . وشهد الشاعر جانباً من هذه الوقائع فترك عنها صورة هي الى تجسيد البطولة الحقة بنفس ملحمي محلق اقرب منها الى مدح مأجور لا يحس به صاحبه إلا بمقدار ما ينتظر عليه من اثابة . وفي هذه المقاطع تتجلّى عبقرية المتنبي لوحات خالصة من الفن ، ولمحات صافية من الشعر تنطق بأنه لو انصرف الى توسيعها وتركيزها موضوعياً لسدّ بذلك ثلمة الشعر الملحمي في أدب العرب . وقد حمل الاعجاب بعض دارسيه الى القول : «وقصائد الحرب كلها وهي ثماني عشرة قصيدة في واحد وسبعين وسبعمائة بيت يبلغ فيها ابو الطيب الغاية التي ليس بعدها متقدم لشاعر او ناثر ... وان هذا المقدار من الشعر الحماسي البليغ في ديوان الشاعر العربي يعسر على الباحث ان يختاره من الملاحم الكبيرة مثل الالياذة والانياذه والشاهناما والمهبراته على طولها . ولا احط من هذه الملاحم ولكن اقول انها لا تعلو في شعرها الى مستوى قصائد ابي الطيب القصيرة الا ابياتاً متفرقة تنبغ في المنظومة حيناً بعد حين [1]» .

ومن اجود قصائده في هذا الباب ، اثنتان في قلعة الحدث

---

(١) عبد الوهاب عزام : ذكرى ابي الطيب ص ٩٠

Digitized by Birzeit University Library

وثالثة في وصف الانتصار على دمستق الروم[1] . ويظهر فيها مؤرخاً حربياً يسجل مستلزمات الحرب وما يرافقها وينتج عنها من الناحيتين المادية والمعنوية وفي حالتي الظفر والهزيمة . فإذا لنا من سيف الدولة سرعة التقرير ، وبراعة الحشد والزحف ، واثارة التهيوء النفسي لدى رجاله ، واعتماد عناصر الحركة السريعة والمفاجأة وضعف معنويات الخصم .

وسرعة التقرير والزحف ضرورة ماسة في الحرب الخاطفة حيث لا يسمح الوقت بالاخذ والرد وعرض المخططات . فهو « همام اذا ما هم امضى » لا تمر خاطرة بذهنه إلا وتتحقق جيشاً زاحفاً ، حسن البلاء والمخاطرة .

ويزحف الجيش تشد صفوفه روح عالية يبعثها فيه قائده بعزيمته وجرأته وحسن معاملته ، وثقته بالنصر ، وتهوين شأن الاعداء ، وجهاده في سبيل قضية سامية نام عنها الملوك وألقوا بثقلها عليه . ويصور المتنبي هذا الزحف على جياد الفت الملاحم فهي تقدم عليها مرحة صاهلة ، نشيطة كالسهم في مضائه ، خافية اللون لما صبغها من الدماء ونسج عليها النقع من براقع :

فأتتهم خوارق الارض ما تحمل م الا الحديد والابطالا
خافيات الالوان قد نسج النقع م عليها براقعاً وجلالا

---

(١) مطلع هذه القصائد :

ذي المعالي فليعلون من تعالى ... هكذا هكذا والا فلا لا
لبالي بعد الظاعنين شكول ... طوال وليل العاشقين طويل
على قدر اهل العزم تأتي العزائم ... وتأتي على قدر الكرام المكارم

Digitized by Birzeit University Library

ويسير بها سيف الدولة يطوي السهـــل والجبل ، ويقتحم الفرات خوضاً على صهواتها ، لا يستقر الا بقدر ما تنال بعـض الراحة وتعود الى الحث ، فكأنما هو على موعد يوشك ان يفوت :

رمى الدرب بالجرد الجياد الى العدا
وما علموا ان السهام خيـــول
شوائل تشوال العقارب بالقنـــا
لهـا مرح من تحتهـــا وصهيل

ولا يشعر العدو الا وسيف الدولة قـــد اختصر المسافات ليأخذه على غرة بقطع مرصوصة تمطر الحديد والنار وتملك عليه الطرق والمنافذ :

فما شعروا حتى رأوهـا مغيرة قباحاً واما خلقهـا فجميل
سحائب يمطرن الحديد عليهم فكل مكان بالسيوف غسيل

وان هي إلا ساعات حتى تنكشف المعركة عن نصر عربي محجل ، تصبح معه اموال العدو نهباً وجيشه مشرداً قتل منه من قتل وفر من اسعفه الحظ والجواد .

ويبدع الشاعر في تصوير حالة الجيش الهارب وقد خـــذله قواده وفقد معنوياته ، فهو يستعيد حروب سيف الدولة السابقة فيسمع صليل السيوف وحشرجة المصابين ، ويرى الدماء دافقة والاوصال مقطعة مبعثرة ؛ يلمس الموت وقـــد خيم على الساحة وبسط جناحيه الرهيبين ، ويجسّم خياله الأشياء فيتجسس جسمه ليتأكد ما اذا كان في حلم او هو لا يزال حياً يرزق . لقد شغله الهول عن كل شيء حتى عن سيفه في يده ، وغلّ الرعب لسانه

Digitized by Birzeit University Library

وفكره فخيل اليه ان الارض تضيق به والريح تسفعه بالدماء والاشلاء ، فيكب على جواده جلداً وهمزاً . ويطير الجوادضارباً على وجهه سابحاً بالعرق وفارسه الخائف يحسبه مقيداً وشبح الموت يمد نحوه يديه :

تحمل الريح بينهم شعر الهام وتذري عليهم الأوصالا
ينفض الروع ايدياً ليس تدري اسيوفاً حملن ام أغلالا

وتنجلي الغمة عن قلعة الحدث فيتوقف الشاعر على العدو يهدده ويهزأ من فشله ، وعلى القلعة يدعوها ان تكل امرها الى هذا السيف الذي :

غصب الدهر والملوك عليها فبناها في وجنة الارض خالا

وطغى بذلك وصفه على الشعر والشعراء حتى اصبح له :

شرف ينطح النجوم بروقيه وعز يقلقل الاجيالا

وقد اكثر الشاعر من استعمال طريقة عنترة ، بأن يسترسل في وصف عظمة الخصم حتى اذا رسم له صورة مهيبة ، عطف الى ممدوحه فجعله يتغلب عليه بيسر ، وبذا يكون نصره اروع واملأ للقلوب والعيون . رأيناه يأخذ بهذه السنة في صراع بدر والاسد ، ولكنه يتبسط بها في مواقع الروم . يصورهم جيشاً هائل العدة والعدد ، تقذف به ثغورهم من كل فجّ وصوب ، ملأ زحفه الشرق والغرب وقد تجمع فيه من كل لِسن وأمة ، وغرق بالحديد والزرد فغابت قوائم الخيل في السلاح ؛ سرت اخباره تنشر الرعب والهول وعلت جلبته رعداً اجشّ يصك اذن الجوزاء . بيد ان هذا اليمّ المواج بالخلائق لن ينال من سيف

Digitized by Birzeit University Library

الدولة منالاً :

فهم البحر ذو الغوارب الا انه صار عنـد بحرك آلا

وما كان موقف امير حمـــدان ؟ لقد اسرع إليهم كمشتاق لهف ، فضم جناحيهم على القلب، واذا القلب والقوادم والخوافي حطام . ونثرهم فوق جبل الاحيـدب بالبشاشة والغزارة التي تنثر بها الدراهم عـــلى العروس . حتى اذا تفرقوا راح يلاحقهم فيدوس وكور العقبان على الذرى ويبذر الاشلاء مطاعم حول هذه الوكور ؛ ويدفع الخيل مصعّدة كأنها الارام تزحف عـلى بطونها ان زلت بها القوائم ، او كأنها عتاق الجوارح تنهد الى العلو فيخطىء فراخ النسر في التمييز بينها وبين أمّاتها .

ويعرّج الشاعر على القلعة والمعركة تدور فيها رهيبة :

بناها فاعلى والقنا يقرع القنا وموج المنايا حولها متلاطم

فيوفق الى نوع من المشاكلة الدقيقة بين اللفظ والمعنى لدرجة نستطيع معها فهم الصورة من خـلال الالفاظ . فان استعمال احرف المد واللين يبرز فكرة البناء والامتداد، وترداد القافات يشعر بقرع السيوف والرماح ، وتدافع الكلمات في عجز البيت يقرّب الى الخيال تلاطم امواج البحر .

وفجأة يهدأ جنون القلعة . انها جثث القتلى وقد علقت على جدرانها تمائم وتعاويذ ، وانها جماجم الاعـــداء سقت ارضها بالنجيع فامتزج بسقيا المطر .

ونرقب سيف الدولة وقد استحالت الساحة مستنقع موت ، فإذا هو ثبت العزيمة باسم الثغر ، تحدى الموت فوقف في جفنه

Digitized by Birzeit University Library

وتجاوز الشجاعة حتى قيل انه عالم بما يخبئه له الغيب وبأن سيف الدهر عنه كليل :

وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم

ومن هذه الصولة والبأس والكبر على الجلّى تعلم الزمن فنون الحرب والصيال :

وان تكن الأيام أبصرن فعله فقد علّم الايام كيف تصول

●

ولكن الدهر دول . فها سيف الدولة وقد بلغ خرشنة مرة ودق ابواب الروم ، يكره على التراجع بعد ان سئم رجاله الحرب . فيفاجئه العدو ويقطع عليه الاسباب ويحول نصره الى هزيمة . وينبري ابو الطيب لتبرئة اميره من هذا العار؛ فيعترف بالهزيمة وينحي باللوم والتعنيف على الجند الذي خذل اميره . هذا الامير الذي هو ملاذ جيشه حين يلجأ السادة الى حمى الجيوش :

بالجيش يمتنع السادات كلهم والجيش بابن ابي الهيجاء يمتنع

ولن تنال هذه النكسة من قدر سيف الدولة وسمعته اذ :

من كان فوق محل الشمس موضعه فليس يرفعه شيء ولا يضع

انه امتحان قاس للعرب . ولا ضير ، فإن لسيف الدولة عودة الى بلاد الروم وما الوقت دون ذلك بالبعيد :

فالدهر معتذر والسيف منتظر وارضهم لك مصطاف ومرتبع

وعرف سيف الدولة مدى تأثير شعر المتنبي في النفوس ،

Digitized by Birzeit University Library

فكان يدعوه في كل مناسبة الى تشديد الهمم واثارة الحماس ، ووصف سفارات ملك الروم الى حلب في طلب هدنة اومفاوضة ومفاداة .

ب ـ اشراك نفسه مع الممدوح :

اعتاد الشعراء ان يظهروا انفسهم في بدء القصائد بشكل نسيب مقلد او شكوى من الزمن ، ثم تذوب شخصيتهم . امّا ان تظل هذه الشخصية بارزة حتى لتشترك مع الممدوح وتفوقه احياناً فهذا ما لم نعهده عند غير المتنبي . فهو يظهر غالباً اشبه بصديق لممدوحه منه بشاعر وظيفته الثناء عليه ؛ ويضع نصب عينيه صورته هو اي مثال الرجل الارفع حسبما يتخيله في الذروة من الشجاعة والكمال وعزة النفس والاقدام ، فيصف الممدوح من خلال هذه الصورة ولكن قسماته هو تظل فيها بارزة . تارة تظهر صريحة بشكل فخر واعتزاز ، وأخرى مستترة بشكل ترفع وسخرية :

في مدح ابي العشائر يجعل نفسه خدن الامير :

شاعر المجد خدنه شاعر اللفظ م كلانا رب المعاني الدقاق

وفي مدح كافور يدّعي المساهمة والكفاءة معه فهما انسان واحد :

وأنا منك لا يهنىء عضو بالمسرات سائر الاعضاء

وعلى اعجابه بسيف الدولة فقد ظل يحتفظ لنفسه بمكانة رفيعة . فاذا هو واحد الشعراء كما ان سيف الدولة واحد

Digitized by Birzeit University Library

الامراء ، واذا هو لا يقوى على رفع الامير دون ان يرتفع معه ، واذا هو شريك له في الرخاء والعزاء :

لا يحزن الله الامير فإنني لاخـــذ من حالاته بنصيب

وكثيراً ما يخاطب الهمداني بلغة الادلال والعتاب كانما هو صديق له وكفء ، وقد يتطرف في عتابه الى نوع من المحاسبة والتهديد ، وكل ذلك دليل على قوة شخصيته التي لا يغمرهـا ظل ممدوح . وليس ادل على هذا ولا اشـد في باب الجرأة من قصيدته واحر قلباه . فانه بعـــد عتاب قاسٍ يصل الى اللوم والتعريض، ينسى موقفه من بلاط الامير ،ومهاجمات ابي فراس ، وتغيّر المليك الذي استماله الخصوم ليندفـــع في ثورة من الكبر والمباهاة لا تعف عن سيف الدولة نفسه . « وليس هذا – يقول المازني – بكلام مدّاح مأجور. وما كان ليصدر عنه لولا شعوره بنفسه وبحقه وبأنه فوق ان يعد من الاذيال بـل ان روحه من الشخصيات القوية التي خلقت للكفـاح والنضال لا للاستخذاء والتمسح [1] »

ج – ضيق وتبرم بالحسد والحسّاد :

ظاهرة نمت في نفسه حتى اصبحت عنده فكرة لا تتزعزع ، يعود اليها في اكثر شعره بألم وشكوى وتستبد بـه فيسمي ابنه محسّداً . يصور ذاته ، فهو لا يحسد احداً والناس كلهم له عـدو

---

(١) ابراهيم عبد القادر المازني : حصاد الهشيم ص ١٢٨ و ١٢٩

Digitized by Birzeit University Library

وحاسد . وعلامَ يحسدونه ؟ على شاعريته وشهرته ، وعلى مكانته في القصور وعزة نفسه . وكان يتمنى لو قدر ان يصدّ حسدهم عنه بما ملكت يداه ولكن انّى له ذلك وما الجود بالحياة والشاعرية بالمستطاع . فيدعو ممدوحيه لمعاونته عليهم ، بالبرّ مرة :

وقد منيت بحسّاد احاربهم فاجعل نداك عليهم بعض انصاري

وبترك الامر لحكمة الامير اخرى :

ازل حسد الحساد عني بكبتهم فانت الذي صيّرتهم لي حُسَّدا

ولكنه لا يلبث ان يستثير حسدهم وبغضهم بمواقفه وتعاظمه فكأنه يجد لذة في ايلامهم ورغبة . بينا هو يسائل نفسه بحرس حزين .

ماذا لقيت من الدنيا واعجبه اني بما انا شاك منه محسود

اذ به يجيبها باستفهام حشوه اللذع والعنفوان :

اني وان لمت حاسديّ فما انكر اني عقوبة لهم

وكيف لا يحسد امرؤ علم له على كل هامة قدم

وكان من نتائج هذا الحسد : في شعره ، ان عمل على تجويده ليأمن النقد؛ وفي حياته ان لحقه التنغيص والمحن فزادت شكواه ونقمته واشتد فخره وتعاليه وراح يأخذ برأي الفارابي – ان صحت نسبة رسالة السياسة الى المعلم الثاني – بضرورة مجابهة الحساد بالكيد لهم والتعاظم عليهم .

د – مبالغة وتكرار :

هي ظاهرة مشتركة بين جميع شعراء العرب وقد خرج بها المتنبي

Digitized by Birzeit University Library

احياناً الى المغالطة والاستحالة. فهو كلما مدح رجلاً جعله فرد زمانه وعلم عصره واهتم ان يتفوق على نفسه في هذا المجال. قال في مدح ابي العشائر:

ليس إلا ابا العشائر خلق ساد هذا الانام باستحقاق

وفي سيف الدولة واصفاً مكانته وعلو همته وقد «علا الذي زحل فوقه»:

وما سلّمت فوقك للثريا ولا سلمت فوقك للسماء

او واصفاً طيب نفسه وقد حمله النسيم مسير عشر ليال:

تنفس والعواصم منك عشر فتعرف طيب ذلك في الهواء

وهذه المبالغات وامثالها دفعته الى تكرار ذاته. ولا يضير شاعراً ان يكرر نفسه ولكن ذلك دليل على قلة الاختراع وعدم الصدق.

اكثر ما يتناول من المعاني فيرددها مع محاولة التفنن في الصور والاخراج:

● معنى التفرد والسيادة فيقول في بدر:

فانت وحيد بني آدم ولست لفقد نظير وحيدا

وفي شجاع الطائي:

الى واحد الدنيا الى ابن محمد

شجاع، الذي لله ثم له الفضل

وفي سيف الدولة:

فذا اليوم في الايام مثلك في الورى

كما كنت فيهم أوحداً كان أوحداً

Digitized by Birzeit University Library

● ومعنى السخاء وتشبيه الممدوح بالبحر ، فيقول في علي بن منصور :

كالبحر يقذف للقريب جواهراً
جوداً ، ويبعث للبعيد سحائبا

ويكرر في احمد بن الحسين :

ولا جلس البحر المحيط لقاصد
ومن تحته فرش ومن فوقه سقف

وفي سيف الدولة :

هو البحر غُص فيه اذا كان ساكناً
على الدر واحذره اذا كان مزبدا

وفي كافور : ومن قصد البحر استقل السواقيا

● ومعنى البطش والشجاعة ومرافقة الطيور للجيش . وقد نظر فيه الى النابغة الذبياني وابي نواس فكرره مراراً في سيف الدولة :

له عسكرا خيل وطير اذا رمى
بها عسكراً لم يبقَ الا جماجمه ...
وما ضرّها خلق بغير مخالب
وقد خلقت اسيافه والقوائم

هـ - **المدح ذو الوجهين** : وقد مرَّ ذكره مع كافور .

و - **تصوير عصر سيف الدولة** : وبخاصة من الناحية السياسية . ولكنها صورة شعرية قلما اعتنت بتقصي الدقائق .

Digitized by Birzeit University Library

فيها تدوين **للحياة الداخلية** في امارة بني حمدان ، ولما رافقها من احداث واضطرابات . فمرة اغارة بدو السماوة على حمص ، وثارة ثورة بني كلاب ، واخرى هيـــاج بني قيس .. الخ . وهي احداث كان سيف الدولة ينهض لقمعها بشدة حتى اذا استكان الثائرون عاملهم بلطف ولين .

وفيها تدوين **للاحداث الخارجية** مع الروم من سفـــارات وحروب حتى لنستطيع ان نتتبع الجيوش في تنقلها وانعطافهـا وانكفائها من الحدث والاحيدب ، الى مرعش وانطاكية ، الى دلوك وطنجه ، الى مَلَطْيَة والران... كما نعرف نتائـــج هذه المواقع بتفصيل في حال نصر العرب ، وبشيء من الاقتضـاب حال الهزيمة .

وفيها صورة **للتحاسد** بـين الحكام لدرجة تدفع واحدهم الى التخاذل عن معاونة جاره على عدو مشترك ، والى تربص الدوائر به لاحتلال ارضه :

وسوى الروم خلف ظهرك روم فـإلى اي جانبيك تميـــل

٢ ــ الهجـــاء

على الرغم من نزعة ابي الطيب العربية ، ومن تسلط الشعوبية في عهده ، فإننا لا نجد له هجاء سياسياً بالمعنى المعروف . امـا قصائده القليلة في باب الهجو فالدافع اليها نقمة شخصية يستغلها الشاعر الى ابعد الحدود حتى لتصبح عداوة قاسية تلاحق الخصم

Digitized by Birzeit University Library

بعد موته [1]. فالمتنبي في هجائه لا يعرف سوى الضربة المدمرة، اما التلهي والسخرية فليس لهما شأن عنده (الا في مقطوعة صغيرة يعبث فيها برجلين قتلا جرذاً) .

اشهر مهجوّيه ثلاثة : كافور الذي امسك به على وعود كاذبة طيلة اربع سنوات ، وابن كيغلغ الذي اوقف ركبه الى انطاكية طمعاً في مدحه ، وضبّه الذي تعرّض له ولجماعة من رفاقه الكوفيين .

وقد كان هجاؤه بكافور والمصريين مقذعاً مؤلماً . ذاك ان نفسه تألمت في مصر ، وكبرياءَه تحطمت امام مليكها العبد ، وسخطه الثائر الذي تغذّى حقبة طويلة كان ينتظر ساعة الحرية لينفجر تحطيماً وتجريحاً . وهو في كافور ، تارة يصور شكله الخارجي باشمئزاز فيتناوله بطرق ساخرة يقلّبه عليها من وجهه الدميم الى مشفره ، ومن كعبيه الى جلده الملمّع ، ومن تخبيط نعليه الى اذنه الدامية في يد النخاس :

واسود مشفره نصفه يقال له : انت بدر الدجى..
وتعجبني رجلاك في النعل انني رأيتك ذا نعل وان كنت حافيا

واخرى يصوّر طباعه ويبسط هجاءه الى امة العبيد باسرها بما هي عليه من بلادة ونتانة حتى ليأنف الموت ان يمس نفس العبد بيده فيحملها على طرف عود . ويتساءل الشاعر ببراءة مصطنعة ملؤها النقمة اللاذعة والايلام المحطم : من علّم العبد خيراً ومكرمة ؟ اقومه السادة البيض ، ام اذنه الدامية بيد

(١) ابيات في هجاء ابن كيغلغ تجدها في المنتخبات من هذا الكتاب

Digitized by Birzeit University Library

النخاس ، ام قدره وهو بالفلسين مردود ؟ فاذا وصل الى هذا القدر من اللذع ، عطف ينصح بملازمة العصا للعبد ، ويقرر غلبة العبودية والمهانة على طباع العبيد ولو ولدوا بثياب البيض وتغذوا بلبن الاحرار . وفي سبيل ذلك يستعمل الالفاظ المضحكة ويحشد نعوت كافور فهو العبد والحصي ، والاسود والخنزير ، والكلب والكركدن ، والخنثى وابو النتن ... وهو محتقر مصغّر فيصبح : اسيود ، وكويفير ، ونوبي ، وخويدم ، واحيمق :

أمينا واخلافاً وغدراً وخسة
وجبنا !! اشخصاً لحت لي ام مخازيا...

لا تشترِ العبد إلا والعصا معه ان العبيد لانجاس مناكيد
ما يقبض الموت نفساً من نفوسهم إلا وفي يده من نتنها عود

وقلما قرأنا قصيدة او مقطوعة في هجاء كافور دون ان يطالعنا سبب نقمة الشاعر : انه الكذب . فقد وعده كافور، ثم ماطل ثم اخلف ، فاضطربت نفس ابي الطيب بين الرجاء والخيبة واليأس :

اني نزلت بكذابين ضيفهم عن القرى وعن الترحال محدود
جود الرجال من الايدي وجودهم
من اللسان . فلا كانوا ولا الجود

اما المصريون الذين يرضون عن الكوافير ويقبلون بحكم الخصيان ، فحسابهم مع ابي الطيب عسير : فهم كدولة مجموعة من المضحكات ، وكأمة جهلة اغبياء ، وكأفراد عضاريط خانعون

Digitized by Birzeit University Library

الحر بينهم يتيم. وما كان المصريون بهذه الصفة او شبهها ولكنها النقمة تنطلق عن لسان الشاعر عنيفة لا ترحم ، همها الفتك لا رسم الحقائق والوقائع :

حصلت بأرض مصر على عبيد كأن الحر بينهم يتيم ...

اغاية الدين ان تحفوا شواربكم يا امة ضحكت من جهلها الامم

واذا كان المتنبي في مدائحه بكافور قد اصطنع الفن والبراعة ستراً للتكلف ، فإنه في اهاجيه قد سار مع الطبع والعاطفة الصادقة .

وما نصيب الشعراء الذين دفعهم حقدهم او حسدهم للتعرض له ؟ انه لا يعيرهم كبير اهتمام بل يكتفي بأبيات قلائل يوجهها اليهم جملة ، او بمقطوعة يخص بها احدهم ليتركه عبرة شائعة لأمثاله من المتطاولين :

صغرت عن المديح فقلت اهجى كأنك ما صغرت عن الهجاء

وما فكرت قبلك في محال ولا جربت سيفي في هباء

٣ ــ الرثاء

ما كان ابو الطيب الذي اقام للقوة هيكلاً ليهن امام الموت وهو يعتبره نهاية المطاف . ولذا جاءت قصائده في هذا الباب تعزية وحكمة اكثر منها توجعاً وبكاء . بعضها يصطبغ بالحزن والألم ، ولكنها في الغالب رثاء مقلد يقوم على الغلو وتهويل المصيبة والانتقال الى اطراء الامير الذي يمت اليه الفقيد بصلة .

Digitized by Birzeit University Library

ماتت جدته لامه من شدة الفرح اثر تسلمها رسالة وردتها منه بعد يأس من عودته . فأحدث ذلك في نفسه حزناً عميقاً هو اعمق ألم عرفه في حياته . وكأن هول الفاجعة قطع عليه شغفه بتوليد المعاني فإذا به يتناول الصور المألوفة بألم ظاهر والتياع : حنينه الى كأس الموت حثيث ، واسفه لعدم توديع الجدة وتقبيل رأسها شديد؛ التراب مقدس لانه ضمّ جثمانها الطاهر؛ والسرور حرام بعد انصار لها سماً قاتلاً ، والدنيا مظلمة مسدودة الجنبات بعد ان كانت بها فسيحة الارجاء مشرقة ... الخ ولكن هذا الاسى لم يمنع الشاعر من الاندفاع في آخر القصيدة بموجة عارمة من الفخر والاستعلاء .

ورثى ام سيف الدولة وقد ماتت في السنة الاولى من اتصاله ببلاط ابنها فجاء رثاؤه تعزية حكيمة وتأملاً فلسفياً على شاعرية حقة وآراء صائبة في فناء الدنيا وسيطرة الموت :

نصيبك في حياتك من حبيب نصيبك في منامك من خيال
يدفّن بعضنا بعضاً ويمشي اواخرنا على هام الاوالي

وهذه الاراء — التي نظر اليها ابو العلاء المعري في داليته — سوف نجدها مرة اخرى على كثير من الخواطر العميقة في رثاء عمة عضد الدولة .

والمتنبي في مثل هذه المناسبات يعتمد على عقله من جهة ، وعلى فنه في اصطناع العاطفة من جهة ثانية فيسكب منه ما يساعده على الابداع . يطالعنا ذلك في رثائه اخت سيف الدولة الصغرى ، وابنه ، وغلامه يماك ... ومحمد التنوخي حيث نراه ينسحب على

Digitized by Birzeit University Library

اذيال ابي تمام :

ما كنت احسب قبل دفنك في الثرى
ان الكواكب في التراب تغور
ما كنت آمل قبل نعشك ان ارى
رضوى على ايدي الرجال يسير
والشمس في كبد السماء مريضة
والارض واجفة تكاد تمور

ومن قصائده التي لا تخلو من صدق عاطفة قوله في ابي شجاع فاتك وقد مات وابو الطيب لا يزال في الفسطاط ولكنه لم يرثه فرقاً من كافور ؛ حتى اذا ترك مصر تحركت عاطفته بازدواجية عنيفة : حزن على ابي شجاع البطل ، ونقمة على كافور الخصي صبغت المرثاة فتحولت الى نوع من الهجـــاء يطل في مثل قوله:

ايموت مثل ابي شجاع فاتك ويعيش حاسده الخصي الاوكع
ابقيت اكذب كاذب ابقيته واخذت اصدق من يقول ويسمع
وتركت انتن ريحة مذمومة وسلبت اطيب ريحة تتضوع

وكان للشاعر ان يتألم مرة جديدة مع صديق الامس سيف الدولة ، فيكتب اليه معزيـاً باخته الكبرى خوله (٩٦٣) . وقد استند بعض الباحثين الى هذه القصيدة ليستنتجوا ان علاقة عاطفية قوية كانت تشد ابا الطيب الى الفقيدة وان رثاءه لهـا يتعدى صداقته لاخيها ليطل على حب عنيف مكبوت . وافاه النعي بعد ان طوى الجزيرة فما استطاع له تصديقاً ؛ وإذا بـه يفزع الى آخر امل يمكن ان يلجأ اليه : عسى ان يكون اشاعة

Digitized by Birzeit University Library

كاذبة . حتى اذا صح النبأ شرق الشاعر بدمعه فطال عليه الليل والتهب منه الفؤاد :

ارى العراق طويل الليل مذ نعيت
فكيف ليل فتى الفتيان في حلب
يظن ان فؤادي غـــير ملتهب
وان دمـــع جفوني غير منسكب

وظاهرة القوة التي رافقت المتنبي في مختلف فنونه لم تفارقه في هذه المرحلة . فهو اذا رثى امرأة نقلها من الضعف الى القوة، من التأنيث الى التذكير ؛

قال في ام سيف الدولة:

وما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكـير فخر للهلال

وفي اخته :

لئن تكن خلقت انثى فقد خلقت
كريمة غير انثى العقل والحسب

وربما اقدم على اصطناع اساليب غير مقبولة في مخاطبة الفقيدة ومناداتها كأن يقسم بعيشها وبأن قلبه لا يسلوها :

بعيشك هل سلوت فان قلبي وان جانبت قبرك غير سالِ

وقد اخـذ عليه الخصوم ذلك وعدوه جهلاً بادب الاجتماع.

٤ — العصبية العربية

في نفس ابي الطيب وشعره نزعة عربيـة واضحة ، اذكاها

Digitized by Birzeit University Library

تجوله في البادية واتصاله بسيف الدولة ، وفقدان الفكرة القومية في خضم الفرس والترك . وهو في كل مناسبة ، يذكر العرب ويرفعهم فوق العناصر الاعجمية ويدعو الحمدانيين الى معاملتهم بعطف الاخوة العربية ورعايتها . يعتز بعروبة امير حلب :

رفعت بك العرب العماد وصيّرت قمم الملوك موائد النيران

ويتألم لأن الحكم للاعاجم في اكثر الانحاء وهم جماعة لا عهد لهم ولا ذمم ، ولا فلاح للعرب عن طريقهم :

انما الناس بالملوك وما م تصلح عرب ملوكهم عجم

ويمر بشعب بوّان في طريقه الى شيراز ، فيشجيه ان يرى العروبة مفقودة في تلك البقعة الجميلة :

ولكن الفتى العربي فيهـا غريب الوجه واليد واللسان

ويرثي يماك التركي غلام سيف الدولة واحد قواده ، فنشعر بأنه يفعل ذلك مسايرة للامير ولكنه لا يحجم عن تذكيره بأن هذا الشخص « غريب » ويمكن الاستعاضة عنه بعربي صميم :

وان الذي امست نزار عبيده غني عن استعباده لغريب

وهو الى ذلك كثير التحنان الى حياة البادية وطبيعة نسائها ، والى شجاعة البدو وطيب صفاتهم .

بيد اننا الى جانب عصبيته هذه ، نجد له ما يوهم مخالفتها في بعض المواقف ، وبخاصة عند كافور وابن العميد ، فكافور همام غرقت في بحر نداه مضر واليمن وفداه عدنان ويعرب :

واي قبيل يستحقك قدره معدّ بن عدنان فداك ويعرب

وابن العميد متملك جمع الى رقي الحضارة بطولة البداوة ،

Digitized by Birzeit University Library

والتقى في شخصه الاسكندر الى جانب ارسطو. وانتقال الشاعر اليه تركٌ لبداوة العرب وشظفهم الى حضارة الفرس ولين عيشهم:

تركتْ دخان الرمث في اوطانها طلباً لقوم يوقدون العنبرا

ولا يعدّ ذلك تنكراً من ابي الطيب لقوميته – كما شاء البعض تفسيره – ولكنه المدح يجني على الشعراء فينطقهم بما لا يضمرون.

Digitized by Birzeit University Library

شاعر الحكمة

فلسفة القوة :

رسم المتنبي في شعره مذهباً خاصاً في الحياة يقوم على اساس من **القوة** ، ويطبع بطابع **النقمة** التي تصل الى حد **الثورة** ، وتغرق احياناً لتصبح لوناً من **التشاؤم** .

فقد عكف الشاعر على نفسه يصوّرها بأكثر دقائقها، ونظر الى المجتمع من خلال حياته الخاصة وتجاربه فترك له صورة قاتمة، وعمد الى بعض نظريات الاغريق وآراء سابقيه كأبي تمام ، فكان له من هذه الينابيع مصدر واسع لحكمته التي جاءت معرضاً للكثير مما يعتلج في الانفس القوية وإن على شيء من الشطط في إساءة الظن بالطبيعة الانسانية ، وفي ارساء علائق المجتمع على دعائم من القوة لا من العدالة .

حاول خصومه ان يجدوا في كل معنى من معانيه الحكمية ، اصلاً يعود الى ارسطو او الى الفلسفة اليونانية بوجه عام . فجمع الحاتمي في رسالة خاصة (١) طائفة من المقارنات بين ارسطو

(١) تجدون قسماً من الرسالة في باب المنتخبات .

Digitized by Birzeit University Library

وابي الطيب. وانه لمن الغرابة بمكان ان تدل مقدمة هذه الرسالة على اعجاب شديد بالمتنبي رغم ما بين الشاعر ومؤلفهامن عداء. جاء في المقدمة : « ووجدنا ابا الطيب المتنبي قد أتى في شعره بأغراض فلسفية فان كان ذلك منه عن فحص ونظر وبحث فقد اغرق في درس العلوم ، وان يكن ذلك منه على سبيل الاتفاق فقد زاد على الفلاسفة بالايجاز والبلاغة والالفاظ الغريبة ، وهو في الحالتين على غاية من الفضل وسبيل نهاية من النبل ».

○

ما نظر المتنبي الى الحياة من ناحيتها الماورائية ، ولا همه ان يشارك الفلاسفة في مشكلة المصدر والمصير. واذا تعرض لهذه القضية فبلمحة عابرة تجعله الى المذهب المادي اقرب منه الى روح الدين : جسد الانسان من تراب ، ونفسه من هواء ، وخلوده مختلف فيه، ومن الخير للعاقل اللبيب ان يطرح عنه هذا البحث اذا شاء ان يعيش بعيداً عن العجز والعناء :

فهذه الارواح من جوه وهذه الاجساد من تربه ...
فقيل تخلص نفس المرء سالمة وقيل تشرك جسم المرء في العطب
ومن تفكّر في الدنيا ومهجته اقامه الفكر بين العجز والتعب

اما الحياة من ناحيتها الاجتماعية ، من حيث واقعيتها وما يجبهها به الدهر من صروف، فهي حلبة صراع لا يصمد فيها على عزة وكرامة إلا الشجاع. الانسان فيها عون للدهر على اخيه الانسان ، وكلما انبت الزمن قناة «ركب المرء في القناة سنانا». التعاون بين الناس حيلة ومداهنة، والصداقة زور وخداع.

Digitized by Birzeit University Library

الظلم في طباعهم ، والرحمة من الامور العارضة ، والعدل حق القوي في التحكم بالضعيف :

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفـــة فلعلـّة لا يظلم

عليك ان تقابلهم بنفس العدة، لا شفقة في القلب ولا رحمة، لانهم لا يشفقون عليك وان كنت قد رحمتهم قبل ذاك: «وارحم شبابك من عدو ترحم . » واذا شكوت اليهم بؤسك وهمـــك « شكوى الجريح الى الغربان والرخم » . فشريعة الحياة اذن قوة تقضي على كل ضعيف جبان، وطموح يدفع الى المرامي البعاد والدنيا فريسة لمن غلب :

من أطاق التماس شيء غلابا واغتصـــاباً لم يلتمسه سؤالا

ولكن هذه المغالبة من الحيف ان تتم في سبيل امر رخيص ، بل ينبغي ان توجّه في طلب المجد والسيادة . وفي كل هذه الآراء يلتقي شاعر حلب ونيتشه فيلسوف القوة الجرماني . وقد عقد عباس محمود العقاد [1] فصلاً في المقارنة بين الاثنين فاذا هما يتفقان في كثير مما قرراه من اصول الاخلاق وغاية الحيـاة ، من تقسيم الأخلاق الى طرازين متنابذين : اخلاق السادة واخلاق العبيد، الى انكار المساواة التي ليست سوى ضرب من الظلم ، الى عدم الركون للحظ الذي لا يقنع به إلا الذليل ، الى الكدّ نحو الكمال دونما توقف او تخاذل :

ولم ارَ في عيوب الناس عيباً كنقص القـــادرين على التمام

وعلى الجملة ، يتفقان في « ارادة القوة » والمطالبـة بالعنف

(١) عباس محمود العقاد : مطالعات في الكتب والحياة ص ١٤٤ – ١٧٤

Digitized by Birzeit University Library

والشدة في سبيل ادراك الغايات ودفع المظالم دون ملاينـــة او مهادنة .

وقد عمل المتنبي على تطبيق هذه الآراء في حياته . فماضعف امام امر ولا هان بل كانت القوة طابع مواقفه الحياتية وظاهرة شعره الاولى حتى في اكثر الفنون غنائية وتطلباً للرقة والعذوبة : الغزل والرثاء . وما المجد الذي يستميت في سبيله ؟ ليس هو زقاً وقينة، ولكنه الفتكة البكر وتقليب السيوف في ساح الموت :

وتضريب اعناق الملوك وان ترى
لك الهبوات السود والعسكر المجر

وتركك في الدنيـــا دوياً كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر

وما العزة التي ينشدها ؟ : « أعز مكان في الدنى سرج سابح »
واين هو من صروف الدهر وشدائده ؟ :

تمرست بالآفات حتى تركتها تقول أمات الموت، أم ذعر الذعر ؟

وربما خيل الينا ان الشاعر يقدم الرأي على القوة . ففي تحكيم العقل نصر وفي الشجاعة المتهورة تسرّع وخطر ، ولو ان الشجاعة وحدها مقياس الرجولة والشرف لكان احقر الاسود ارفع وانبل من اي كائن بشري . واذن :

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو اول وهي المحـل الثاني

ولكننا لا نلبث ان نسمع رأيه صريحاً بعد ان عرك الحياة وذاق منها ما اشتهى وما انكر :

حتى رجعت واقلامي قوائل لي المجد للسيف ليس المجد للقلم

Digitized by Birzeit University Library

آراء وامثال :

وعلى تقديسه القوة واعتبارهـا اول مطلب في الحياة فهو لا ينسى ان الانسان مركّب ثنائي وان احد عنصريه يشدّ بـــه الى اللذة والمادة فقال باللذة ودعا اليها :

انعـم ولذّ فللامور اواخر ابـــداً اذا كانت لهن اوائل

ولكنها لذة مشروطة ، حدّها الكرامـة والبعد عن الذل والعـــار :

فما منزل اللذات عندي بمنزل اذا لم يجلّ عنده واكرّم ...

ولا اقيم على مـــال اذل به ولا الذ بما عرضى به درن

وله – الى ذلك – كثير من الآراء في الحيـاة والموت نجتزىء بعضاً منها .

من اقواله في فناء الحياة وتقلبها وزوال نعمها :

نصيبك في حياتك من حبيب نصيبـك في منامك من خيال

وفي تعلق الانسان بها :

واذا الشيخ قال اف فما مل م حياة ، وانما الضعف مـــلا

وفي ان الموت حتم مجاب ، والخوف منه ضعف وجبن :

نحن بنو الموتى فما بالنا نعاف مالا بد من شربه...

واذا لم يكن من الموت بد فمن العجز ان تموت جبانا

وفي ان الناس لا عهد لهم ولا خـير ، والشك بنواياهم حذر وفطنة :

ولما صار ودّ الناس خبّا جزيت على ابتسام بابتسام

وصرت اشك فيمن اصطفيه لعلمي انـه بعض الانام

Digitized by Birzeit University Library

وفي الحفاظ على العقل لأنه عون في الحادثات :

يهون علينا ان تصاب جسومنا وتسلم اعراض لنـــا وعقول

وفي التجلد على الدهر ومصائبـه . هذا الدهر الذي يفاجئنا بما لا نحتسب :

لا تلق دهرك الا غير مكترث ...ولا بد دون الشهد من ابر النحل

كل ذلك ليصل المرء الى المجد ولو على رؤوس الاسنة ودفق الدماء ، اذ :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

وهكذا يعود الشاعر دوماً الى نطـاق القوة ، حتى اعتبر بعض دارسيه ان النزعة الدموية القرمطية هي التي اثارت نفسه الى الشدة والبطش .

●

قال العقّاد : « مذهب المتنبي في الحياة ثمرة هذا التزاوج بين طبعه وعقله ونتيجة القدرة على استيعاب مؤثرات الحياة جميعها او هضمها هضماً تغتذي به السليقة والذهن في وقت معاً » .

وهذه القدرة على استيعاب الحياة دفعت اليازجي الى القول : « المتنبي ينطق بألسنة الحـدثان ويتكلم بخاطر كل انسان » ودفعت غيره الى البحث عن « العناصر الانسانية » في شعره ، وهم عـــلى حق في الحالتين ؛ ذاك ان نفس ابي الطيب جاشت بالخواطر التي لا تختص بفرد دون فرد ولا بشعب دون شعب ، بل هي قدر شائع يعتلج في الذات البشرية بكل زمان ومكان . انها حالات نفسية من قوة وطموح ، وغرور وكبرياء ، وحقد

Digitized by Birzeit University Library

وحسد ، وأمل ويأس ، وقلق وثورة ، وعزة وانفة الخ ... ألمَّ بهـا المتنبي وعبَّر عنها بصدق وطبعية حتى ليجد من يطالعها تجاوباً عميقاً بينها وبين ما يودُ ان يعبِّر عنه في نفسه . وما اشدَّ ما ينطبق عليه قول ارنولد :

« احسن الشعر هو الذي يقدّم لنـــا اكمل تفسير للحياة الانسانية » .

Digitized by Birzeit University Library

جوانب مختلفة

١ ـ فنه الشعري :

ابو الطيب شاعر جمع في نفسه الغرابة الى الطبعية ، وفي شعره الثورة الى التقليد . ثار على الشعراء واحتقرهم دون ان يخرج على مواضيعهم وفنهم شأن بشار وابي نواس ، بل راح يكدح في الطرق القديمة من مدح وهجاء وفخر ورثاء . ولكنه احدث في صلب هذه الفنون هزّة — ان لم تكن جذرية — فانها ذات طابع « متنبئيّ » خاص تبيّناه في مميزات مدحه .

كان صيقل معانٍ وصور يغوص على القوي منها ، ويقذف بها شاملة جامعة ، بعيدة عن التفريع والتفصيل اللذين عرف بهما ابن الرومي. وهذا التراكم المجمل في المعاني ، يبرزه في القليل من اللفظ ، قادهُ احياناً الى نوع من الغموض أُخذ عليه . فقوله مثلاً :

حسن ، في عيون اعدائه اقبح م من ضيفه رأتــه السوام

يراد به ان الممدوح حسن بجوهره ولكنه قبيح في عيون اعدائه ، بل هو عندهم اقبح من ضيفه في عيون إبله ؛ لأن النوق

Digitized by Birzeit University Library

تعرف في قدوم الضيف نحرها ، والاعداء يعرفون في الامير الممدوح حتفهم .

وشبيه بذلك قوله :

شيم الليالي ان تشكك ناقتي صدري بها افضى ام البيداء

والمراد : من طبع الليالي ان تبعد عليّ مطالبي وترميني بالنصب وطول الاسفار حتى توقع الشك عند ناقتي فيمن هو اوسع : أصدري بما فيه من عزم وانفساح همة ، ام البيداء التي تمتد بامتداد العين ؟

وكما يجمع المعاني شاملة متراصة ، هكذا يجمع **الصور** :

على سابح موج المنايا بنحره غداة كأن النبل في صدره وبل

فلدينا لوحة تامة في ثلاث صور : صورة الموت وقد تجسم بحراً طامياً طغى موجه فغمر نحور الجياد ؛ وصورة الفرس يضرب في هذا اليمّ دون خوف او وجل ؛ ثم صورة السهام تراش نحو الجواد فاذا هي في صدره دفق من المطر ولكنها لاتحدّ من عزمه واندفاعه .

ويتناول نفسه فيبدع في اختيار الصورة ومفرداتها :

رعيت الردى حتى حلت لي علاقمه . والبراعة في قوله رعيت وحلت ؛ فإنها تعطي فكرة مرج واسع اعشابه مرة مميتة بل هي الموت نفسه . ولكن الشاعر لشدة تمرسه بصناعة الردى يسرح ويمرح في هذا المرج ويرعى من عشبه واذا المرارة في فمه حلاوة ، واذا الناس يتساءلون : أمات الموت ، فلا قدرة له على هذا المتمرد ؟

Digitized by Birzeit University Library

ويرتفع بالطبيعة درجة في سلم كمالها ، واذا بجواده في شعب بوّان كائن يشارك الانسان احساسه بالجمال ويترجم عن خواطره. يعجب لفارسه كيف يترك هذه الجنة ليذهب الى ساحة الحرب او الى اي مكان آخر ؛ وينحو باللوم على آدم الذي سنّ لنسله في قضية الجنان شرعة خاطئة :

ابوكم آدم سنّ المعاصي وعلّمكم مفارقة الجنان

ويصور نفسية الهارب الخائف ، فتلازمه صفة التشخيص والتجسيم ، وينقلب معها صوت الرياح الى كائنات تُسمع وتُرى وتبعث الرعب والهول :

يرون من الذعر صوت الرياح صهيل الجياد وخفق البنود

وربما اجتمع لديه التقليد والتجديد في الصورة الواحدة . فبينما هو يصف اعرابية بالصور القديمة من تشبيه القد بالغصن والريق بالشهد مع محاولة تجديد بالحاق الظلم بفتاته :

مظلومة القد في تشبيهه غصناً مظلومة الريق في تشبيهه ضربا

اذ به يقول في البيت الثاني :

كأنها الشمس يعيي كف قابضها شعاعها ، ويراه الطرف مقتربا

والصورة ـ على كون الاقدمين كطرفة والنابغة شبهوا وجه المرأة بالشمس ـ جديدة كل الجدة بهذا الجمال المتمنع كشعاع شمس يأخذ العين فتراه قريباً منها ، وتعيى الكف عن قبضه مع انه يظل في مكانه مقيماً .

اما **المفردات** فاثر البداوة متغلب فيها على الحضارة . يعبرها ابو الطيب في الغالب اهتماماً شديداً حتى لتعطي الصورة وتؤدي

Digitized by Birzeit University Library

الغاية قبل فهمها . فاننا نهزأ من « العضاريط الرعاديد » قبل ان نعرف مؤدى اللفظتين ، ونشمئز من « مشفر كافور » ونحتقر « الأهيل والخويدم » وكل الذين يخاطبهم بصيغ التصغير زراية بهم وتنقصاً .

وربما كان في مقطوعته « بالبطلين » اللذين قتلا جرذاً ، ابعد الدلالة على سخريته ولذعه في المفردات ، فكأنه يهجو بالالفاظ قبل المعاني . يصور الجرذ « المستغير » وقد اصبح « اسير المنايا » وكيف تم ذلك ؟ لقد « تلاه » للوجه » وكل من الاثنين « ادّعى قتله » كأن ما اقدما عليه عمل عظيم يتسابقان على انتحاله فخراً ومباهاة . ثم جاءت بعد ذلك نتيجة المعركة : اخذ اسلاب العدو . ولنستمع اليه يشرح ذلك :

كلا الرجلين اتّلى قتله فايكما غلّ حر السلب
وايكما كان من خلفه فان به عضة في الذنب

واما **الاسلوب** فخطابي عنيف في اكثر المواقف ، فيه روعة وامتداد نفس ، يرتفع ويتدافع في بيت او استدارة حتى ينتهي الى قرار في آخر لفظة :

هنيئاً لضرب الهام والمجد والعلى وراجيك والاسلام انك سالم

او كقوله في بيت يتمثّل في نفسه لوحة فنية تامة : فيه عمق المعاني وغزارتها ، وفيه جمال الصور وبراعتها وفيه الموجات الموسيقية المتدافعة ، وفيه انسجام مؤتلف بين اللفظ والمعاني :

بناها فأعلى والقنا يقرع القنا وموج المنايا حولها متلاطم

Digitized by Birzeit University Library

وقد نظر القدماء في شعر المتنبي فجمع الثعـــالبي في كتابه « يتيمة الدهر » طائفة من المآخذ بعضها يرجع الى اللفظ وبعضها الى المعنى والى آداب القصائد المتواضع عليها في ذلك العصر . من المآخذ اللفظية : الاكثار من استعمال الغريب والقوالب ، وتكرار اللفظ الواحد ، ومخالفة ضوابط اللغة ؛ ومن المآخذ على الاسلوب والمعاني : الافراط في المبالغة ، والتعقيد في المعنى ، والسرقة عن السابقين ، والتكلف في الاخراج ، والافصاح عن ضعف العقيدة والدين . ومن شواهدهم على ذلك :

غثاثة عيشي ان تغث كرامتي وليس بغث ان تغث المآكل...
ولم ارَ مثل جيراني ومثلي لمثلي عنـــد مثلهم مقام ...
ولا الضعف حتى يتبع الضعف ضعفـــه
ولا ضعف ضعف الضعف بل مثله الف ..

العارض الهتن ، ابن العـــارض الهتن م
ابن العارض الهـــتن ، ابن العارض الهتن

ومن ادلتهم على تخطيه آداب القصائد لدرجة فساد الذوق والتذلل البغيض :

لو استطعت ركبت الناس كلهم الى سعيد بن عبدالله بعرانا ...
ليت انّا اذا ارتحلت لك الخيل م وانا اذا نزلـت الخيـــام

ومن مآخذهم عليه في ضعف عقيدته قوله :

ان كان مثلك كان او هو كائن فبرئت حينئذ من الاسلام ...
او كان لفظك فيهم ما انزل الفرقان والتوراة والانجيلا ...
يترشّفن من فمي رشفـات هنّ فيه حـــلاوة التشهيد

Digitized by Birzeit University Library

ونرى ان اكثر هذه المآخذ من فصيلة واحدة، وقد وقع فيها الشاعر في المراحل الاولى من حياته الادبية . اما ضعف التدين فاذا اساء الى ابي الطيب الرجل الموحد فانه – برأي اصحاب نظرية الفن للفن – لا يضير الاديب في شيء . ذاك انهم ينظرون الى الادب من حيث هو فن خالص بمعزل عن الدين والاخلاق . قال احمد امين : « لقد وضع ابو نواس في الادب العربي اسساً ان لم ترضِ الاخلاق فقد ارضت الفن، وان كرهها رجال الدين فقد احبَّها رجال الادب »

والى جانب السقطات ، توقف الجرجاني وابن رشيق والثعالبي عند محاسن شعر المتنبي، وجمعوها فتجلت : « ببراعته في دقة الاشارة وحسن المطلع والتخلص ، وجمال التشبيه ، وحسن تقسيم القصيدة ، وارسال المثل الشارد، وشكوى الدهر والدنيا، والابداع في مخاطبة الممدوح بمثل مخاطبة المحبوب ، والغوص على المعاني القوية العميقة ، وتوليد الصور بخيال رحب محلق ، ووضف القتال وادواته ، واستقامة الاسلوب وقوته مع تيسّر طرائق البيان » .

آراء النقاد فيه

٢ ـ بين خصومه وانصاره

ما عرف الادب العربي في قديمه وحديثه ، شاعراً اختصم فيه الناس خصامهم في ابي الطيب . بدأ هذا الخصام في حياة الشاعر وامتد الف سنة ولا يزال شديد الاوار . وقد انقسم الادباء في

Digitized by Birzeit University Library

نظرتهم اليه ثلاث فئات : فئة تحاملت عليه وحطت من قدره كالصاحب بن عبّاد ، والعسكري ، والشريف الرضي . وفئة بالغت في تعظيمه حتى التقديس كابن جنّي، والعكبري وابي العلاء المعري . وفئة وقفت موقف المعتدل الموفق فكانت الى الاعجاب اميل ، كالجرجاني في « وساطته » ، والثعالبي في « يتيمته » ، وابن رشيق في « عمدته » ، وابن الاثير في « مثله السائر » .

ولكن الخصوم انفسهم ما استطاعوا انكار شاعريته . فهذا الحاتمي نراه بعد مناظرته والطعن فيه يقدم لرسالته بما يعدّ تعظيماً لأبي الطيب؛ وهوذا الصاحب بن عبّاد وقد كتب رسالة في « الكشف عن مساوىء المتنبي » يجمع ابياتاً من مختار شعره ويقدّمها لفخر الدولة بن بويه ؛ وذاك الشريف الرضي وابو فراس وشعراء العصر الحمداني يتأثرون ـ شاؤوا ام ابوا ـ بطريقته ويرددون طائفة من معانيه وصوره .

وحسب المتنبي ان يكون محجة اثنين من عباقرة الشعر عند العرب : ابو العلاء المعري ـ شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء ـ وقد تأثر به في ثورته على الحياة وفي تشاؤمه ، واعتبر ديوانه «معجزة» الشعر ؟ واحمد شوقي ـ امير شعراء القرن العشرين ـ وقد قلّده في غير واحدة من قصائده واتخذه الذروة التي يقصد نحوها ويعمل لتجاوزها :

ولو مشت بي الليالي تحت كوكبه غادرت احمد نسياً وابن حمدانا

* * *

وانتقلت هذه الخصومة من العرب الى المستشرقين ، فاذا

Digitized by Birzeit University Library

٣٤ – وقد اربى عددهم على الثلاثين – يقفون من شعره مواقف متباعدة حتى التناقض الصارخ. فيقول رايسك : « انـــه دعيّ متغطرس ، مليء بالقسوة وحب الذات ، لا يجـد في الكون ما يعجبه ، ولا يرى حوله الا الاعداء». ويوافقه دي ساسي معتبراً « ان شهرة المتنبي قامت على فساد الذوق الادبي عند العرب لأنه ليس في شعره ما يضاهي القصائد القديمة رونقاً وقيمة فنية » .

اما لاغرانج فيرى «انه رجل العبقرية وشاعر الخيال والحماسة. يمتاز من زملائه بسمو الفكرة وبالمثالية التي يبلغهـــا احياناً » ويحمل الاعجاب هامر برغستال الى القول : انـــه اعظم شعراء العرب . وضعته هذه القرون التسعة في المكان الذي يستحقـه شرقاً وغرباً ، ولا يزال مجده متلألئاً . فهو حقاً ابو الشعر واامير فنه عند العرب ... ويعدّه نيكلسون : فيكتور هوغو الشرق. ويعتبره غابر يللي شاعراً عالميـــاً « في مصاف شعراء الغرب الخالدين » .

٣٤ – من أقوال الأدباء فيه

قال ابو القاسم الطبسي :

كان من نفسه الكبيرة في جيش ومن كبرياه في سلطان
ما رأى النـــاس ثاني المتنبي اي ثان يرى لبكر الزمان
هو في شعره نبي ولكن ظهرت معجزاته في المعاني

وقال ابن رشيق : ثم جاء المتنبي فملأ الدنيـا وشغل الناس.

Digitized by Birzeit University Library

ونقل عنه احدهم قوله : ابو الطيب كالملك الجبار يأخذ ما حوله قهراً وعنوة .

● وقال ابن الاثير : ابو تمام والبحتري وابو الطيب لات الشعر وعزاه ومناته .

... اما ابو الطيب فقد اختص بالابداع في وصف القتال وحظي في شعره بالحكم والامثال... اذا خاض في وصف معركة كان سلاحه امضى من نصالها وأشجع من أبطالها حتى تظن الفريقين قد تقابلا والسلاحين قد تواصلا ... وعلى الحقيقة فإنه خاتم الشعراء ومهما وصف به فهو فوق الوصف وفوق الاطراء.

● وقال عبد الوهاب عزام في كتابه « ذكرى ابي الطيب » :

« والشاعر الكبير ،بل الإنسان العظيم يقدر بجملته لا بتفصيله وبقدرما أحدث في ادب امته وبما امدها من عقله وقلبه وبيانه واحسانه . فان رأيت الشاعر جاء فأثار الأفكار وهاج النفوس وترك شعره على الالسنة والاقلام يتمثل به الناس وينشدونه طربين ، ويحفظونه محتفلين ، فهذا شاعر مطبوع مبتكر صنع للناس شيئاً ، ومهد لهم طريقاً ، وصاغ لهم حلية ، واورثهم شعراً خالداً .»

Digitized by Birzeit University Library

نماذج من شعره

Digitized by Birzeit University Library

الشاعر الذاتي

١ – الوجدانيات

موضه

أصابته الحمى بمصر سنة ٩٥٩ م . فقال يصفها ويصور حالته النفسية وما هو فيه من ألم وشكوى .

ولمّا صارَ وُدُّ الناسِ خِبًّا ... جَزَيتُ على ابتسامٍ بابتسامِ (١)
وضِرتُ أشكُّ فيمن أصطفيهِ ... لعلمي أنّـــه بعضُ الأنامِ (٢)
يُحبُّ العاقِلونَ على التصافي، ... وحبُّ الجاهلينَ على الوسامِ (٣)
وآنَفُ من أخي لأبي وأمي ... إذا ما لم أجدهُ من الكرامِ
أرى الأجدادَ تَغلِبُها كثيراً ... على الأولادِ أخلاقُ اللئامِ (٤)
ولستُ بقانعٍ من كلِّ فضلٍ ... بأن أعْزَى الى جَدٍّ هُمامِ (٥)

(١) الود : الصداقة – الخب : الخداع .
(٢) اصطفيه : اختاره – الانام : الناس .
(٣) التصافي : الاخلاص في الصداقة – الوسام : جمال الصورة .
(٤) اي كثيراً ما تتغلب الأخلاق اللئيمة على شرف الاصل .
(٥) اعزى : أنسب – الهمام : السخي الشجاع .

Digitized by Birzeit University Library

عجبت لمن له قدٌ وحدٌ ويَنبُو نبوةَ القَضمِ الكهامِ[1]
ومَن يجدُ الطريقَ إلى المعالي فلا يَذَرُ المطيَّ بلا سنامِ[2]
ولَم أرَ في عُيوبِ الناسِ شيئاً كنَقصِ القادرينَ على التَّمامِ

***

أقمتُ بأرضِ مصرَ فلا ورائي تَخُبُّ بيَ الركابُ ولا امامي[3]
ومَلَّنِيَ الفِراشُ، وكان جنبي يَمَلُّ لِقاءَه، في كلِّ عامِ.
قليلٌ عائدي، سَقِمٌ فؤادي، كثيرٌ حاسدي، صعبٌ مَرامي[4]
عليلُ الجسمِ، مُمتَنِعُ القيامِ، شديدُ السكرِ من غيرِ المدامِ[5]
وزائرتي كأنَّ بها حياءً، فليس تزورُ إلاَّ في الظلامِ[6]

---

(١) القد : القامة ـ الحد : البأس ـ ينبو يكل عن الضرب ويعجز ـ القضم : السيف المثلم ـ الكهام : غير القاطع . والمعنى : عجبت لمن له القوة والبأس ثم يرتد عن الامور اذا عرضت كالسيف المثلم الكليل .

(٢) يذر : يترك ـ المطي : ما يركب من الابل والدواب ـ السنام : ما ارتفع من ظهر الجمل . والمعنى : وعجبت ايضاً ممن يرى طريق المجد مفتوحة امامه ولا يكد عليها حتى يذيب ظهور مطاياه من شدة السير .

(٣) تخب : تسير خبباً ـ الركاب المطايا .

(٤) العائد : الزائر في المرض .

(٥) المدام : الخمر .

(٦) زائرتي : الحمى .

Digitized by Birzeit University Library

بَذَلتُ لها المطارفَ والحشايا، فعافتها وباتت في عِظامي[1]

يَضيقُ الجلدُ عن نَفسي وعنها فتُوسِعُهُ بأنواع السقامِ

كأنَّ الصبحَ يَطرُدُها، فتجري

مدامِعُها، بأربعة سِجامِ[2]

أُراقبُ وقتَها من غيرِ شوقٍ،

مُراقبةَ المشوقِ المُستَهامِ[3]

ويَصدُقُ وعدُها والصدقُ شرٌّ

إذا أَلقاكَ في الكُرَبِ العظامِ[4]

أبنتَ الدهرِ عندي كلُّ بنتٍ،

فكيفَ وصلتِ أنتِ، من الزِحامِ؟[5]

جَرحتِ مُجرَّحاً لم يبقَ فيه مكانٌ للسيوف، ولا السِّهامِ

ألا يا ليتَ شعرَ يدي أَتُمسي

تَصَرَّفُ في عِنانٍ او زِمامِ؟[6]

* * *

---

(١) المطارف ج مطرف : رداء من خز ـ الحشايا ج حشية : الفراش المحشو ـ عافتها : أبتها .

(٢) المدامع : مجاري الدمع ـ سجام : منسكبة . كنى بذلك عن كثرة العرق الذي تتركه الحمى لدى ذهابها عنه .

(٣) المشوق المستهام : الذي اشتد به العشق والهيام .

(٤) الكرب ج كربة : المشقة والحزن .

(٥) بنت الدهر : المصيبة ، ويريد بها الحمى .

(٦) ليت شعري : تعبير بمعنى ليتني اشعر ؛ وليت شعر يدي : اي ليت يدي تعلم ـ تصرف : تنصرف ـ العنان : سير اللجام ـ

Digitized by Birzeit University Library

يقولُ لي الطبيبُ : أكلتَ شيئاً
وداؤكَ في شرابكَ والطعامِ
وما في طبّه أنّي جوادٌ أضرّ بجسمه طولُ الجمامِ (١)
تعوّدَ ان يُغبّرَ في السرايا،
ويدخلَ مِن قتام في قتامِ (٢)
فأمسكَ لا يُطالُ له فيرعى ،
ولا هو في العليقِ ، ولا اللجامِ (٣)

* * *

فإن أمرَضْ ، فما مرضي اصطباري !
وإن أُحمَمْ ، فما حُمّ اعتزامي ! (٤)
وإن أسلَمْ ، فما أبقى ولكن سَلِمتُ مِن الحِمام الى الحِمام

لزمام : المقود . والمعنى : ليت يدي تعلم هل تمسي قابضة على عنان فرس او مقود ناقة تخرج بي من هذا البلد .

(١) الجواد : الفرس الكريم ـ الجمام : الراحة .

(٢) السرايا ج سرية وهي القطعة من الجيش ـ القتام : الغبار .

(٣) أمسك : ربط في مكانه والمعنى ان هذا الجواد ربط لا يعدا له في الحبل ليتجول ، ولا يقدم له العليق ، ولا يترك فينطلق مسافراً . وكنى المتنبي بحالة هذا الجواد عن حالته مع كافور .

(٤) احم : اصاب بالحمى ـ الاصطبار الصبر والتجلد ـ الاعتزام : العزم .

Digitized by Birzeit University Library

تَمتَّعْ من سُهادٍ او رُقادٍ ،
ولا تَأمَلْ كَرىً تحت الرجَامِ[1]
فإنَّ لثالثِ الحالين معنىً سوى معنى انتباهك والمنَامِ[2]

٢ ـ الفخر

قال في صباه يشكو الزمن والناس على اعتداد وثورة وطموح .

ما مُقامي بأرض نخلةَ إلاّ كمقامِ المسيحِ بين اليهودِ[3]
مفرَشي صهوةُ الجوادِ ولكنْ م قميصي مسرودةٌ من حديدِ[4]
لأمةٌ فاضةٌ ، أضاةٌ دلاص أحكمَت نسجها يَدا داودِ[5]
أين فضلي إذا قنعتُ من الدهرِ م بعيشٍ مُعجَّلِ التنكيدِ ؟
ضاقَ صدري ، وطالَ في طلب الرزق م قيامي ، وقلَّ عنه قعودي

---

(١) السهاد : السهر ـ الكرى : النعاس ـ الرجام : حجارة تقام على القبر والمعنى إهنأ بما شئت من سهر او نوم ما دمت حياً ، لانك تحت حجارة القبر لن تهنأ بشيء من ذلك .

(٢) ثالث الحالين : الموت . المعنى : إن للموت معنى غير معنى اليقظة والرقاد

(٣) نخلة : قرية لبني كلب عند بعلبك .

(٤) المفرش : موضع الفراش ـ الصهوة : مقعد الفارس من الفرس ـ مسرودة : منسوجة .

(٥) اللأمة : الدرع ـ الفاضه : الواسعة ـ الأضاة : البراقة ـ الدلاص : اللينة الملساء . ويقال ان داود النبي اول من صنع الدروع .

Digitized by Birzeit University Library

أبداً أقطع البلاد ، ونجمي في نُحوسٍ ، وهمّتي في سعودِ

* * *

عش عزيزاً او مُتْ وأنت كريمٌ
بين طعنِ القنا وخفقِ البنودِ (١)
فرؤوسُ الرماح أذهبُ للغيـظِ
م وأشفى لغِلِّ صـدر الحقودِ (٢)
لا كما قد حييتَ غيرَ حميدٍ وإذا مُتَّ مُتَّ غيرَ فقيدِ
فاطلُبِ العزَّ في لَظىً ودعِ
م الذُّلَّ ولو كان في جنان الخلودِ (٣)
يُقْتَل العاجز الجبانُ ، وقد م يعجُزُ عن قطع بُخنق المولودِ (٤)
ويُوقَّى الفَتَى المِخَشُّ ، وقد م خَوَّضَ في ماءِ لَبَّةِ الصنديد (٥)
لا بِقَومي شَرُفْتُ ، بل شَرُفُوا بي ،
وبنَفْسي فَخَرتُ ، لا بجـدودي ،
وبهم فَخْرُ كلِّ من نَطَقَ الضادَ ، م
وَعَوذُ الجاني ، وغوْثُ الطريدِ (٦)

---

(١) البنود : الاعلام الكبيرة .
(٢) الغل : الحقد .
(٣) اللظى : جهنم .
(٤) البخنق : خرقة يقنع بها رأس الطفل .
(٥) المخش : الجريء على الليل ـ اللبة : اعلى الصدر ـ الماء : الدم ـ الصنديد : السيد الشجاع .
(٦) الضاد : اللغة العربية ـ العوذ : الالتجاء ـ الغوث : النصرة .

Digitized by Birzeit University Library

إن أكنْ مُعْجَباً، فعُجْبُ عجيبٍ
لَم يَجِدْ فوقَ نفسِهِ منْ مَزيدِ
أنا تِربُ النَّدى، وَرَبُّ القوافي،
وَسِمامُ العِدى، وغيظُ الحسودِ (١)
أنا في أُمَّةٍ ـ تَدارَكَها اللهُ ـ م
غَريبٌ كصالحٍ في ثَمودَ

ثورة وطلب مجد

قال مفتخراً في قصيدة يمدح بها علي بن عامر الانطاكي .

أُطاعنُ خيلاً، من فوارسها الدهرُ
وَحيداً، وما قوْلي كذا، ومعي الصبر ؟ (٢)
وأشجعُ مني كلَّ يومٍ سلامتي وما ثبتتْ إلاَّ وفي نفسها أَمرُ
تمرَّستَ بالآفاتِ حتى تركتُها
تقولُ : أماتَ الموتُ؟ أم ذُعِرَ الذعرُ؟ (٣)
وأقدمتُ إقدامَ الأتيِّ، كأنَّ لي
سوى مُهجتي، أو كانَ لي عندها وِترُ (٤)

---

(١) تِرب الانسان : من ولد معه ـ السهام ج سم .
(٢) اراد بالخيل حوادث الدهر التي يطاعنها وحيداً ، ثم استدرك قائلا انه ليس وحيداً لان صبره ينجده .
(٣) تمرس : تحكك ـ الذعر : الخوف .
(٤) لأتي : السيل ـ الوتر : الثأر .

Digitized by Birzeit University Library

ذرِ النفسَ تأخذْ وُسعَها ، قبلَ بينِها
فمفترقُ جارانِ ، دارُهمُا العمر [1]
ولا تحسَبنَّ المجدَ زِقّاً وَقَينةً ؛
فما المجدُ إلاَّ السيفُ ، والفتكةُ البِكرُ [2]
وَضربُ أعناقِ الملوكِ ، وأن تُرى
لكَ الهبَواتُ السودُ ، والعسكرُ المجر [3]
وَتركُكَ في الدنيا دَوِيّاً ، كأنما
تداوَلُ سَمعَ المرءِ أنملُهُ العَشرُ [4]
وَمَن يُنفِقِ الساعاتِ في جَمعِ مالِه ،
مَخافةَ فقرٍ ، فالذي فَعَلَ الفقرُ [5]

واحرَّ قلباه

على كون هذه القصيدة مِدحة في سيف الدولة، فقد انصرف فيها الشاعر الى العتاب والشكوى، والاعتداد بالنفس والتعاظم، حتى ليمكن ان تسلك في باب المفاخر . انشدها ابو الطيب ، بعد انقطاع منه وجفاء من الامير ، وكان المجلس حافلاً بالامراء

---

(١) ذر : دع ـ الوسع : الطاقة ـ البين : الفراق ـ الجاران : النفس والجسد .
(٢) الزق : وعاء الخمر ـ القينة : الجارية المغنية ـ الفتكة البكر : الضربة التي لم يسبق اليها احد .
(٣) الهبوات : الغبار ـ المجر : الكثير .
(٤) تداول : بمعنى تتداول اي تتعاقب .
(٥) اي صنيعه هو الفقر ، لان عيشه وعيش الفقير سيان .

Digitized by Birzeit University Library

والشعراء ؛ فراح ابو فراس يقاطعه في اكثر ابياتها ، زاعماً انها مسروقة من دعبل وعروة بن الورد ، والهيثم بن الاسود ومعقل العجلي وغيرهم ؛ وضجر سيف الدولة من كثرة المناقشات ومن دعاوي الشاعر ، فضربه بدواة كانت بين يديه . فارتجل الشاعر :

ان كان سرَّكم ما قال حاسدنا فما لجرح اذا ارضاكم ألم

واعجب الامير ببداهته وشاعريته «فرضي عنه ، وأدناه اليه ، وقبَّل رأسه ، وأجازه بألف دينار ، ثم اردفها بألف اخرى » .

واحرَّ قلباهُ مِمَّن قلبُهُ شَبِمُ ! ومن بجسمي وحالي عنده سَقَمُ [1]

مالي أُكتِّمُ حُبّاً قد برى جسدي ،

وتدَّعي حبَّ سيفِ الدولةِ الأممُ ؟[2]

ان كان يجمَعُنا حُبٌّ لِغُرَّتِهِ ،

فليتَ أنّا ، بقَدْرِ الحبِّ نقتسِمُ ![3]

قد زُرتهُ ، وسيوفُ الهندِ مُغْمدةٌ

وقد نظرتُ اليه والسيوفُ دمُ ،

---

(١) واحر قلباه : وا للندبة ، حر قلبي ـ شبم : بارد ـ المعنى : يا لحرارة قلبي من حب رجل ، قلبه بارد من حبي ، مع اني في عرفه سقيم الحال والجسم من شدة الشغف .

(٢) برى : انحل .

(٣) لغرته : لطلعته .

Digitized by Birzeit University Library

فكان احسنَ خلقِ الله كلِّهِمُ
وكان أحسن ما في الاحسنِ الشيمُ (١)

فوْتُ العدوِّ ، الذي يَمَّمْتَهُ ، ظَفَرٌ
في طَيِّهِ أسفٌ ، في طيِّهِ نِعَمُ (٢)

قد ناب عنك شديدُ الخوفِ ، واصطَنَعَتْ
لك المهابَةُ ، ما لا تصنَعُ البُهَمُ (٣)

ألزمتَ نفسَكَ شيئاً ، ليس يلزُمها ،
أن لا يُوارِيَهُم ارضٌ ولا عَلَمُ (٤)

أكلَّما رُمتَ جيشاً ، فانْثَنى هَرَباً
تَصَرَّفتْ بك ، في آثاره ، الهِمَمُ !

عليك هَزْمُهُمُ في كلِّ مُعترَكٍ
وما عليك بهم عارٌ ، اذا انهزموا

أما ترى ظَفَراً حلواً سوى ظَفَرٍ
تصافحتْ فيه بيضُ الهندِ والِلمَمُ ؟ (٥)

استعارة تصريحية

* * *

---

(١) الشيم : الاخلاق ـ المعنى في البيت وسابقه : زرت سيف الدولة في السلم ، وصحبته في الحرب ، فكان في حالتيه احسن الناس طراً ، وكانت اخلاقه احسن ما في هذا الاحسن .

(٢) يممه : قصده ـ المعنى : هرب عدوك ظفر لك فيه اسف لانك لم تدركه ، وفيه نعم لانك حجبت دم رجالك .

(٣) البهم : الجيوش .

(٤) العلم : الجبل .

(٥) بيض الهند : السيوف ـ اللمم ج لمة : الشعر المجاور شحمة الأذن .

Digitized by Birzeit University Library

يا اعدلَ النـاسِ إلا في معامَلتي
فيكَ الخِصامُ، وأنتَ الخصمُ والحَكَمُ
أُعيذُها نَظَراتٍ منكَ صادِقةً
ان تحسَبَ الشحمَ فيمَن شحمُهُ وَرَمُ (١)
وما انتِفاعُ أخي الدنيا بناظرِهِ،
اذا استَوتْ عنده الانوارُ والظُلَمُ ؟
سيعلَمُ الجمعُ مِمَّن ضمَّ مَجلِسُنا،
بأنني خيرُ من تَسعى به قَدَمُ
أنا الذي نظر الاعمى الى أدبي،
وأسمَعتْ كلماتي، مَنْ به صمَمُ
أنامُ مِلءَ جُفُوني عن شوارِدِها،
ويَسهَرُ الخَلقُ جرّاها، وَيَختَصِمُ (٢)
وجاهلٍ مدَّه في جهلِهِ ضَحِكي،
حتى أتَتْهُ يدٌ فرّاسة، وَفَمُ (٣)
إذا رأيتَ نيوبَ الليثِ بارِزةً
فلا تَظُنَّنَّ أن الليثَ يَبْتَسِمُ !
وَمُهجَةٍ، مُهجتي من همِّ صاحبِها،
أدركتُها بجوادٍ ظهرهُ حَرَمُ (٤)

---

(١) أعيذها : دعاء للنظرات بالحفظ – المعنى : أعيذ نظراتك الصادقة ان لا تميز بين شاعر كبير مثلي ، وشويعرين كخصومي .
(٢) شواردها : اي القوافي السائرة – جراها : من اجلها .
(٣) مده : اطمعه – فراسة : مفترسة .
(٤) المهجة : الروح – الحرم : المكان الذي لا يحل انتهاكه .

Digitized by Birzeit University Library

رِجلاهُ، في الركضِ رِجلٌ، واليدان يدٌ
وَفعلُه ما تُريدُ الكَفُّ والقَدَمُ .

ومُرهَفٍ سرتُ، بينَ الجحفلَينِ، به
حتى ضربتُ، وموجُ الموتِ يَلتطِمُ (١)

الخيلُ واللّيلُ والبيداءُ، تعرِفني
والسيفُ، والرمحُ، والقرطاسُ، والقلمُ

صَحِبتُ في الفلَواتِ، الوحشَ، منفَرِداً
حتّى تعجّبَ مني الغورُ والأكَمُ (٢)

يا مَن يعِزُّ علينا أن نُفارِقَهُم،
وِجْدانُنا كلَّ شيءٍ بَعْدَكُم، عَدَمُ

ما كان أخلَقَنا منكم بتكرِمةٍ
لو أنَّ أمرَكُمُ مِن أمرنا أمَمُ (٣)

إن كان سرّكُمُ ما قالَ حاسِدُنا
فما لجرحٍ، إذا أرضاكُمُ، أَلَمُ

وبيننا، لو رَعيتُم ذاكَ، مَعرِفةٌ
إنَّ المعارفَ، في اهلِ النُهى ذِمَمُ (٤)

---

(١) المرهف : السيف الرقيق الحد ـ الجحفل : الجيش العظيم .
(٢) الغور : المطمئن من الارض ؛ ويروى : القور اي الارض ذات الحجارة السوداء ـ الاكم ج أكمة : الجبل الصغير .
(٣) أخلقنا : اجدرنا ـ أمم : قريب .
(٤) النهى : العقول ـ الذمم العهود .

Digitized by Birzeit University Library

كم تطلبونَ لنا عيبـــاً ، فيُعجزكمُ
ويَكرَه اللهُ ، مـــا تأتونَ والكرمُ

مـا ابعد العيبَ والنقصانَ عن شرفي ؛
أنا الـــثريَّا ، وذانِ الشيبُ والهَرمُ (١)

ليت الغمام الذي عنـــدي صَواعِقُـــه
يُزيلُهُـــنَّ إلى مَنْ عنـــدهُ الدِيَمُ (٢)

أرى النـــوى يقتضيني كلَّ مرحلةٍ
لا تستقِلُّ بهـا ، الوَخادة الرُسُمُ (٣)

لـئن تَركنَ ضُمَيْراً عـــن ميـامِنِنا
ليحدُثنَّ ، لمن ودَّعتُهم ، نـــدَمُ (٤)

إذا ترحَّلتَ عن قومٍ ، وقد قَـدَرُوا
ان لا تفارِقَهُم ، فـالراحلون هُمُ

شرُّ البلادِ مـــكانٌ لا صَديق بهِ ،
وشرُّ ما يكسِبُ الانسانُ ما يَصِمُ (٥)

---

(١) ذان : عائـدة الى العيب والنقصان ـ والمعنى : ان العيب والنقص يبعدان عني بعد الشيب والهرم عن علاء الثريا .

(٢) الديم ج ديمة : الامطار التي تدوم اياماً .

(٣) النوى : البعد ـ يقتضيني : يطالبني ـ الوخادة : السريعة السير ـ الرسم ج الرسوم وهي الناقة التي ترسم صور اخفافها في الرمال .

(٤) ضمير : جبل عن يمين المسافر من الشام نحو مصر ؛ وتركن : يعود الضمير فيها للنياق الوخادة .

(٥) يصم : يعيبُ .

Digitized by Birzeit University Library

وشرٌ مـــا قَنَصتَهُ راحتي قَنَصٌ ،
شُهْبُ البُزاةِ سَوَاء فيه والرَخَمُ [1]
بأيٍّ لفظٍ تقولُ الشعرَ زِعْنِفَـــةٌ ،
تجوزُ عندك ، لا عُربٌ ولا عَجَمُ [2]
هـــذا عتابُك ، إلاّ أنَّهُ مِقَة ،
قد ضُمِّنَ الدُرّ ، إلاّ أنه كَلِمُ [3]

٣ ــ الغزل

اكثر غزله ، ابيات ترد في مطالع قصائـــده ، معانيها وصورها بدوية ، على تكرار وحسن اخراج .

حلاوة الهوى

لعَينيكِ ، ما يَلقى الفؤادُ وما لقي ،
وللحُبِّ ، ما لم يبقَ مني وما بقِي
وما كنتُ ممّن يدخلُ العِشقُ قلبَهُ ،
ولكِنَّ مَنْ يُبصرْ جُفونكِ يعْشَقِ
وبينَ الرضى والسُخطِ ، والقُرب والنوى
مَجالٌ لدمـــعٍ المُقـــلةِ المُتَرَقرِقِ

---

(١) الشهب الاشهب وهو ما فيه بياض وسواد ــ الرخم : طائر ضعيف يشبه النسر في الخلقة .
(٢) زعنفة : الاوباش .
(٣) المقة : المحبة .

Digitized by Birzeit University Library

وأحلى الهوى ، ما شكَّ في الوصلِ ربُّهُ ،
وفي الهجرِ ؛ فهْو الدهرَ ، يرجو ويتَّقي

وغضْبَى من الإدلالِ ، سكرى من الصبا ،
شفَعتُ اليهـــا من شبابي بريِّقِ (١)

ومـــا كلُّ من يهوى يعفُّ اذا خلا
عفافي ، ويُرضي الحبُّ ، والخيلُ تلتقي

... عشيَّة يعدُونا عن النظَرِ البُكا ،
وعن لذَّةِ التوديع ، خوفُ التفرُّقِ (٢)

جهد الصبابه

جُهدُ الصَبابةِ ان تكون كما أرى
عَينٌ مُسَهَّدَةٌ ، وقلبٌ يخفُقُ

مـا لاح برقٌ ، او ترنَّمَ طائرٌ
إلاَّ انثنيتُ ، ولي فؤاد شيِّقُ (٣)

وعذَلتُ اهلَ العشق حتى ذقتهُ
فعجِبتُ كيفَ يموتُ من لا يَعْشَقُ (٤)

---

(١) ريق الشباب : اوله ورونقه .
(٢) يعدونا : يمنعنا .
(٣) انثنيت : رجعت ـ الشيق : المشتاق .
(٤) عذلت : لمت .

Digitized by Birzeit University Library

أسف على الوَداع

شوقي اليك نفى لذيذَ هجوعي
فارَقتَني ، وأقامَ بين ضُلوعي[1]
مازِلتُ أحذرُ من وَداعك جاهداً
حتى أعتدى أسَفي على التَوديع
رحَلَ العزاءُ برحلتي ، فكأنَّما
أنبَعَثْـه الانفـاسَ للتَشييع

البدويـات

مَنِ الجآذِرُ في زيِّ الأعاريبِ
حُمرَ الحُلى، والمطايا، والجلابيب[2]
ماوجْهُ الحَضَرِ المُستحسَناتُ بهِ
كأوجه البدويَّات الرَعابيبِ[3]
حُسنُ الحضارةِ مجلوبٌ بتَطْرِيةٍ
وفي البَداوةِ حسنٌ غيرُ مجلوبِ
أفدي ظباءَ فلاةٍ ، ما عَرفنَ بها
مَضْغَ الكلام، ولاصبغ الحواجيب

---

(١) الهجوع : النوم .
(٢) الجآذر ج جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية تشبه بها النساء لجمال عيونها ـ حمر منصوبة على الحالية ـ الجلابيب : ج جلباب وهو ملحفة تلبسها المرأة فوق ثيابها .
(٣) الرعابيب : ج رعبوبة وهي الطويلة الممتلئة .

Digitized by Birzeit University Library

شاعر القصور

١ — المديح

قال يمدح سيف الدولة ويهنئه بعيد الاضحى سنة ٣٤٢ هـ وقد انشده اياهـا وهـا على فرسيهما في ميدان حلب

لكلِّ أمرىءٍ من دهرِه ما تعوَّدا ،
وعادةُ سيفِ الدولةِ الطعنُ في العِدَى
وأن يُكذِبَ الإرجافَ عنه بضدِّه
ويُمسي ، بما تنوي أعادِيهِ ، أسعدا (١)
ورُبَّ مريدٍ ضرَّهُ ، ضرَّ نفسه ،
وهادٍ اليه الجيشَ ، أهدى وما هدى (٢)

---

(١) الارجاف : الاكثار من الاخبار الكاذبة ، أي : ومن عادة سيف الدولة ان يكذب ارجاف اعدائه عنه ، فيظفر على الخصم الذي ينوي حربه ويصبح بذلك اشد سعادة .
(٢) هاد : اسم فاعل من الهداية — أهدى : من الهدية .

Digitized by Birzeit University Library

ومستكبرٍ لم يَعرِفِ الله ساعة ،
رأى سيفَهُ في كفهِ ، فتشهَّدا [1]

هو البحرُ غصْ فيه ، إذا كان ساكناً
على الدُرِّ وأحذرهُ إذا كان مُزبِدا

فإني رأيتُ البحرَ يَعثرُ بالفتى ،
وهذا الذي يأتي الفتى ، مُتعمّدا [2]

تظلُّ ملوكُ الأرضِ خاشعةً له ،
تُفارِقُه هلْكى ، وتلقاهُ سُجَّدا .

وتُحيي له المالَ ، الصوارم والقنا ،
وَيَقْتُلُ ما تحيي التَبَسُّمُ والجدا . [3]

ذكيٌّ ، تَظَنّيهِ طليعةُ عينِه
يرى قلبه ، في يومه ، ما ترى غدا [4]

وَصولٌ الى المستصعباتِ بخيله ،
فلو كان قرنُ الشمس ماءً لأوْردا [5]،

---

(١) تشهد : قال أشهد ان لا إله الا الله .
(٢) يعثر بالفتى : يهلكه عن غير قصد .
(٣) الصوارم : السيوف – القنا : الرماح – الجدا : العطاء .
(٤) تظنيه : تظنه – الطليعة : اول الجيش – والمعنى ، ظنه لعينه بمنزلة الطليعة للجيش . فهو يسبق عينيه الى الاشياء فيرى قلبه منها في يومه ما ستراه عينه في غده .
(٥) قرن الشمس : اول ما يبدو منها عند الطلوع .

Digitized by Birzeit University Library

لذلك سمّى ابنُ الدُمستق يومـــه
مماتاً ، وسمّاهُ الدمستقُ مولدا [1]

سريت الى جَيحَان من أرضِ آمدٍ
ثلاثاً ، لقد أدناك ركض وأبعدا [2]

فولّى وأعطـــاك ابنه وجيوشه
جميعاً . ولم يُعط الجميـعَ ليُحمدا

عَرَضتَ له دون الحياة وطرفه ،
وأبصر سيف الله ، منك ، مُجردا

وما طلبتْ زرقُ الأسنّة غيرَه ،
ولكنّ قسطنطين كان له الفدى

فأصبـح يجتابُ المسوح مخافـة
وقد كان يجتابُ الدِلاص المسرَّدا [3]

ويمشي به العكّازُ ، في الدير ، تائبـاً
وما كان يرضى مشي أشقر أجردا [4]

---

(١) الدمستق : قائد جيش الروم ، وفي البيت إشارة الى معركة السنة الفائتة وقد جرح فيها الدمستق وأسر ابنه قسطنطين .

(٢) اي أدناك الركض من جيحان على بعدها ، وابعدك عن آمد على قرب عهدك بمفارقتها .

(٣) يجتاب : يلبس – المسوح : ثياب من الشعر – الدلاص : الدرع اللين – المسرد : المنسوج .

(٤) اشقر : صفة الجواد المحذوف – اجرد : قصير الشعر .

Digitized by Birzeit University Library

وما تاب حتى غـــادر الكرُّ وجههُ
جريحاً، وخلَّى جفنهُ النقعُ أرمدا[1]

فـــاو كان يُنْجي من عليٍّ ترهبٌ
ترهَّبت الاملاكُ مثنىً وموحـدا[2]

وكلُّ أُمرىء في الشرق والغرب بعده
يعـــدُّ له ثوباً ، من الشعْرِ ، اسودا

هَنيئاً لك العيدُ ، الذي انت عيـدُه
وعيدٌ لِمن سمَّى ، وضحَّى ، وعَيَّدا[3]

ولا زالتِ الأعيـادُ لبسَكَ بعدَه ،
تُسَلِّمُ مخروقا ، وتعطَى مُجَـدَّدا

فذا اليومُ في الايام ، مثلك في الورى ،
كما كنت فيهم أوحـداً ، كان اوحدا

هو الجَد ! حتى تَفْضُلَ العين اختها
وحتى يكون اليوم ، لليوم ، سيِّدا[4]

فيا عجبا من دائلٍ أنت سيفُـهُ !
أمَا يتوقَّى شفرتي مـــا تقلَّدا ؟[5]

---

(١) النقع : غبار الحرب .
(٢) الاملاك : الملوك .
(٣) سمى : ذكر الله .
(٤) الجد : الحظ .
(٥) دائل : ذو الدولة ويقصد به الخليفة .

Digitized by Birzeit University Library

ومن يجعل الضرغام للصيـــد بازه ،
تصيَّـده الضرغام فيما تصيَّـــدا .

رأيتك محض الحلم ، في محض قدرةٍ
ولو شئتَ ، كان الحلم منك المهنَّدا ؛ (١)

وما قتل الأحرار كالعفو عنهـــم ؛
ومن لك بالحرِّ الذي يحفظُ اليدا (٢)

إذا انت اكرمت الكريم ، ملكته ،
وإن أنـــت اكرمت اللئـــيم تمرَّدا

ووضع الندى ، في موضع السيف بالعلى
مُضِرٌّ ، كوضع السيف في موضع الندى (٣)

ولكنْ تفوق النـــاسَ رأياً وحكمةً
كما فُقتَهم حالاً ، ونفساً ، ومَحتِـــدا (٤)

يدِقُّ على الافكارِ ما انت فاعِلٌ
فيُتركُ ما يَخفى ، ويُؤخَذُ مـا بدا

أزل حسد الحسَّادِ عـني بكبْتِهم ؛
فأنت الذي صيَّرتَهـم ليَ حُسَّدا (٥)

---

(١) المحض : الخالص ـ المهند : السيف الهندي .
(٢) الاحرار : الكرام ـ اليد : النعمة .
(٣) الندى : الجود .
(٤) المحتد : الاصل .
(٥) بكبتهم : باذلالهم .

Digitized by Birzeit University Library

إذا شدَّ زندي حسنُ رأيـك فيهمُ ،
ضربتُ بسيفٍ يقطعُ الهام مُغمدا

وما أنا الاَّ سَمْهـــريٌّ ، حَملتَـه ،
فزيَّن معروضاً ، وراع مُسدَّدا [1]

وما الدهرُ الاَّ من رواة قصائدي ،
إذا قلت شعراً اصبح الدهرُ مُنشدا

فسار به من لا يسير ، مُشمِّراً ،
وغنّى به ، من لا يُغنّي ، مُغرِّدا

أجِزْني ، اذا أُنشِدتَ شعراً ، فانّما
بشعري اتاك المادحُونَ ، مُرَدَّدا

ودَع كلَّ صوتٍ ، غيرَ صوتي ، فانني
أنا الطائر الَمحكيُّ ، والآخرُ الصَّدى [2]

تركتُ السُرى خلفي ، لمن قلَّ ماله
وأنعلتُ أفراسي ، بنُعماك عَسجدا [3]

وقيَّدتُ نفسي في ذَراك محبـــةً
ومَن وَجد الإحسان قيداً ، تقيَّدا [4]

---

(١) سمهري : الرمح ـ راع : خوف ـ مسدداً : موجهاً الى المطعون .
(٢) المحكي : الذي يحكى صوته .
(٣) السرى : السير ليلا ـ العسجد : الذهب .
(٤) ذراك : جانبك .

Digitized by Birzeit University Library

إذا سأل الإنسانُ اياَمـــه الغنى ،
وكنتَ على بعدٍ ، جعلناك موعِـدا

مدح كافور

اول قصيدة نظمها فيه ؛ وقد ضمنها حنينه المكبوت الى سيف الدولة ، وأله من الدهر وشكواه ، ووصفه الموفق للجياد الكريمة في طريقها الى الفسطاط

كفى بك داءً ان ترى الموتَ شافيا
وحسبُ المنايا أن يكنَّ أمانيا (١)

تمنّيتَهـا ، لمـا تمنّيتَ أن ترى
صديقاً فأعيا ، أو عدواً مداجِيا (٢)

إذا كنتَ ترضى أن تعيشَ بِـذلةٍ
فلا تستَعِدَنَّ الحسامَ اليمانيـا (٣)

... فما يَنفعُ الأسدَ الحياءُ من الطوى
ولا تُتّقى حتى تكون ضواريا (٤)

حبيبتُكَ ، قلبي ، قبل حبك مَن نأى
وقد كان غدّاراً ، فكن أنتَ وَافيا

---

(١) كفى بك : بمعنى كفاك وهو يخاطب نفسه على سبيل التجريد .
(٢) اعيا : اعجز ـ مداجياً : يستر عداوته .
(٣) تستعدن : تأخذه لك عدة .
(٤) الطوى : الجوع .

Digitized by Birzeit University Library

وأعلمُ أن البينَ يُشكيكَ بعـــدَهُ
فلستَ فؤادي ، إن رأيتُك شاكيـا
فإن دموعَ العـين غـُدْرٌ بربّهـــا ،
إذا كـُنَّ إثرَ الغادرينَ جـــواريا [1]
وللنفس أخلاق تـدل على الفتى ،
أكان سخاءً ، ما أتى ، أم تساخيا [2]
أقِلّ اشتياقاً ، ايهـــا القلب ، ربَّما
رأيتُك تُصفي الودَّ مَن ليس صافيا
خُلِقتُ ألوفاً لو رجعتُ الى الصِبى ،
لفارقتُ شيبي ، موجعَ القلب ، باكيا
ولكنَّ بالفُسطاطِ بحراً ، أزرتـــه
حياتي ، ونُصحي ، والهوى ، والقوافيا
وُجرداً مَددنا بينَ آذانِها القنـــا ،
فبِتنَ خِفافاً يتَّبعْنَ العواليـــا [3]
تَماشى بأيدٍ ، كلما وافتِ الصفـــا ،
نقشنَ به صدرَ البزاةِ ، حوافيـا [4]
وتنظرُ من سُودٍ صوادقَ ، في الدجى
يرَينَ بعيـداتِ الشخوصِ كما هيـــا

---

(١) بربها : بصاحبها .
(٢) التساخي : تكلف السخاء .
(٣) العوالي : الرماح .
(٤) تماشى : تتماشى ـ الصفا : الصخر .

Digitized by Birzeit University Library

وتَنصِبُ للجرسِ الخفيِّ سوامِعاً
يَخلْنَ مناجاةَ الضمير تنـــاديا (١)

تُجـــاذِبُ فرسان الصباح أعِنَّةً
كأنَّ على الأعناقِ ، منها ، أفاعيـــا

بعزمٍ يسيرُ الجسمُ في النسرج راكباً
بـه ، ويسيرُ القلبُ في الجسم ماشيا

قواصدَ كافورٍ ، توارِكَ غـــيرِه ،
ومن قصَدَ البحرَ ، استقلَّ السواقيا

فجاءت بنا انسانَ عـــينِ زمانهِ ،
وخلَّت بياضاً ، خلفها ، ومآقيا (٢)

.. أبالمسكِ ،ذا الوجهُ الذي كنتُ تائقاً
اليه ، وذا اليومُ الذي كنتُ راجيا (٣)

لقيتُ المَرورَى والشناخيبَ ، دونه
وجُبتُ هجيراً يترك الماءَ صاديا (٤)

يُـــدلُّ بمعنىً واحدٍ كلُّ فـــاخرٍ
وقد جمعَ الرحمنُ ، فيك ، المعانيـــا

---

(١) الجرس : الصوت الخفي .
(٢) انسان العين : سوادها ـ المآقي : اطراف العيون عنـد ملتقى الجفنين .
(٣) أبا المسك : كنية كافور لسواد لون المسك وطيبه .
(٤) المرورى : الفلاة الخالية ـ الشناخيب ج شنخوب ، رؤوس الجبال ـ جبت : قطعت ـ الهجير : شدة الحر ـ الصادي : العطشان .

Digitized by Birzeit University Library

إذا كسَبَ الناسُ المعاليَ بالندى ،
فإنك تعطي في نـداك المعاليـا
وغيرُ كثيرٍ أن يزورك راجـلٌ
فيرجعَ مَلكاً للعراقـينِ واليا [1]
فقد تَهَبُ الجيشَ الذي جاءَ غازياً
لِسائِلكَ الفردِ ، الذي جاءَ عافِيا [2]
وتَحتَقِرُ الدنيا احتقـارَ مُجَرِّبٍ
يرى كلّ ما فيها ، وحاشاك ، فانِيا
ومـا كنتَ ممَّن أدركَ الملكَ بالمُنى
ولكـن بأيّامٍ أشَبْنَ النواصيا [3]
وأنتَ الذي تَغشى الأسنَّـةَ أولاً ،
وتأنفُ أن تغشى الأسنةِ ثانيـا [4]
إذا الهندُ سوَّت بين سيفَيْ كريهَةٍ ،
فسيفُكَ في كفٍّ تزيـلُ التَساوِيا

من اوصافه في المديح

وصف قلعة الحدث وموقعتها

هَلِ الحَدَثُ الحمراءُ تعرفُ لونَها ،
وتعلمُ ، أيُّ الساقِينِ الغـمائمُ ؟

---

(١) العراقين : اسم اطلق على الكوفة والبصرة ، وعلى العراق العربي والعراق العجمي .
(٢) العافي : طالب المعروف .
(٣) النواصي ج ناصية ، شعر مقدم الرأس .
(٤) تغشى : تأتي .

Digitized by Birzeit University Library

سَقَتْها الغَمامُ الغُرُّ قبلَ نُزولهِ ،
فلمَّا دنا منها ، سقتها الجماجم [1]

بناها فأعلى والقنا يقرعُ القنا
وموجُ المنايا ، حولها ، مُتلاطِمُ

وكان بها مثلُ الجنونِ ، فأصبحت
ومِن جُثثِ القتلى ، عليها تمائم [2]

... أتوكَ يَجُرُّون الحديدَ كأنّما
سَرَوْا بحيادٍ ، مالهُنَّ قَوائم [3]

إذا بَرَقوا لم تُعرَف البيضُ منهُمُ ،
ثيابُهُمُ من مثلها ، والعمائمُ

خَميسٌ بشرقِ الارض والغرب زحفُه ،
وفي أُذُنِ الجوزاء ، منه ، بزمازم [4]

تَجَمَّعَ فيه كلُّ لِسْنٍ وأُمَّةٍ ،
فما يفهمُ الحُدَّاثَ إلاَّ التَراجِمُ [5]

---

(١) الغر : البيض .
(٢) تمائم ج تميمة ، وهي تعويذة تعلق في العنق إتقاء لمس الجن.
(٣) قوائم : ايدي وأرجل الخيل .
(٤) الخميس : الجيش العظيم المؤلف من خمس فرق ـ الجوزاء : نجمان معترضان في وسط السماء ، وهو من البروج ـ زمازم : صوت الرعد .
(٥) اللسن : اللغة .

Digitized by Birzeit University Library

... نَثرتَهُمُ فوق الأحيدبِ كلَّهِ
كما نُثِرتْ فوق العروسِ الدراهمُ [1]
تدوسُ بكَ الخيلُ الوُكورَ، على الذُرى،
وقد كَثُرتْ، حولَ الوكورِ، المطاعم
إذا زلِقتْ مَشْيَتَها ببطونِها،
كما تَتَمشَّى، في الصعيدِ، الأراقمُ [2]

وصف لبنان في الشتاء

وعِقابُ لبنانٍ، وكيف بقَطْعِها؟
وهوَ الشتاءُ، وصَيْفُهنَّ شِتاءُ
لَبِس الثلوجُ بها عَليَّ مسالكي،
فكأنَّها ببياضِها سوداءُ

وصف الاسد

من قصيدته في مدح بدر بن عمار

أمُعَفِّرَ الليثِ الهزَبرِ بسَوطِه
لِمنِ ادّخرتَ الصارمَ المصقولا؟!
وَرْدٌ إذا وَرَدَ البحيرةَ شاربًا،
وَرَدَ الفرات زئيرُه، والنيلا [3]

(١) الأحيدب: جبل الحدث.
(٢) الاراقم ج أرقم: الحية فيها سواد وبياض.
(٣) الورد: الاسد

Digitized by Birzeit University Library

مُتَخَضِّبٌ بدم الفوارسِ ، لابسٌ
في غيلِه ، مِنْ لِبْدَتيه ، غِيلا (١)
ما قُوبلَتْ عيناه ، إلاّ ظُنَّتا ،
تحت الدُجى ، نارَ الفريقِ حُلُولا (٢)
يَطَأُ الثرى مُترَفِّقاً مِن تِيهِه
فكأنَّه آسٍ يَجُسُّ عليلا (٣)
وَيَرُدُّ عُفرتَه الى يا فوخِه ،
حتى تصيرَ لرأسه إكليلا (٤)
... ما زالَ يجمعُ نفسه في زورِه
حتى حَسِبتَ العرضَ منه الطولا (٥)
وَيدُقَّ بالصدر الحجار كأنَّه
يبغي الى ما في الحضيض ، سبيلا

وصف شِعب بَوّان

من قصيدة يمدح بها عضد الدولة ، وفيها وصف شعب بوان في الطريق الى شيراز .

مَغَاني الشِّعبِ ، طِيباً في المغاني ،
بمنزِلةِ الربيعِ من الزمانِ (٦)

(١) الغيل : غاب الاسد ـ اللبدة : الشعر المتجمع على كتف الاسد .
(٢) الدجى : الظلمة ـ الفريق : الجماعة ـ الحلول : النازلون .
(٣) آس : طبيب .
(٤) العفرة : شعر مؤخر الرأس في الاسد .
(٥) الزور : وسط الصدر .
(٦) المغاني ج المغنى ، وهي المنازل ـ الشعب : المنفرج بين جبلين .

Digitized by Birzeit University Library

ولكنَّ الفتى العربيَّ فيهـا ،
غريبُ الوجهِ ، واليدِ ، واللسانِ
ملاعِبُ جنَّـةٍ لو سَارَ فيهـا
سليمانٌ ، لسارَ بِتَرْجمانِ
طَبَتْ فُرسانَنَا ، والخيلَ ، حتى
خَشِيتُ ، وإن كرُمن ، من الحِرانِ (١)
غدونا ، تَنفضُ الاغصانُ ، فيها ،
على أعرافِهـا ، مثلَ الجُمَانِ (٢)
فسِرتُ وقـد حَجَبنَ الحرَّ عنى ،
وجئنَ من الضيـاءِ بما كفاني
والقى الشرقُ منهـا في ثيابي ،
دنانـيراً ، تَفِرُّ من البنانِ (٣)
لهـا ثَمَرٌ ، تشيرُ إليك منه
بأشربـةٍ وقفنَ بـلا أوانِ
وأمـواه تصِلُّ بهـا حَصَاها
صليلَ الحَلْيِ في أيدي الغواني (٤)
يقـولُ بشِعبِ بوَّانَ حصاني ،
« أعَنْ هذا يُسَارُ الى الطِعان » ؟

---

(١) طبت : دعت .
(٢) الأعراف ج العرف : شعر عنق الفرس ـ الجمان : اللؤلؤ .
(٣) الشرق : الشمس ـ دنانير : اضواء مستديرة كالدنانير ـ البنان : اطراف الاصابع .
(٤) تصل : تعطي صوتاً .

Digitized by Birzeit University Library

أبوكم آدمٌ سَنَّ المعاصي ،
وعلَّمكم مُفارقةَ الجِنَانِ

٢ ـ الهجاء

كان ابو الطيب قد اقام سنة لا يلقى كافوراً وينشده، ولكن يسير معه في الموكب لئلا يوحشه . حتى اذا كان يوم عَرَفه سنة ٣٥٠ ، قال يهجوه ثم فرَّ ليلاً عن مصر :

عِيدٌ ! بأيَّةِ حالٍ عُدتَ يا عيدُ
بما مضى ؟ أم لأمرٍ فيكَ تَجديدُ ؟ (١)
أما الأحِبَّةُ ، فالبيداءُ دونهُمُ ،
فليتَ دونكَ بِيداً ، دونها بِيدُ ! (٢)
لولا العُلى،لم تَجُبْ بي ما أَجُوبُ بها،
وَجناءُ حرف ، ولا جرداءُ قَيدُودُ . (٣)
... ياساقِيَيَّ،أَخمرٌ في كؤوسِكُما؟
أَمْ في كؤوسِكُما همٌّ وتسهيدُ ؟
أصخرةٌ أنا ؟ مالي لا تحرِّكُني
كَهذي المدامُ ، ولا هَذي الأغاريدُ

---

(١) عيد : اي هذا عيد .

(٢) البيداء : الفلاة والمعنى : ان احبتي بعيدون ، فليتك ابعد منهم باضعاف .

(٣) تجب : تقطع ـ الوجناء : الناقة الشديدة ـ حرف : ضامرة ـ جرداء : قصيرة الشعر ـ قيدود : طويلة العنق .

Digitized by Birzeit University Library

إذا أردتُ كُميتَ اللونِ صافيةً ،
وجدتُها ، وحبيبُ القلبِ مفقودُ [1]
ماذا لقيتُ من الدنيا ؟ وأعجَبُهُ
أني بما انا شاكٍ منه محسودُ
أمسيتُ أروحَ مُثرٍ ، خازِناً ويداً ،
انا الغنيّ ، وأموالي المواعيدُ ! [2]
إنّي نزلت بكذّابينَ ، ضيفُهُمُ
عن القِرى ، وعنِ الترحالِ ، محدودُ [3]
جودُ الرجالِ من الأيدي ، وجودُهُم
من اللسانِ ، فلا كانوا ولا الجودُ !
ما يقبِضُ الموتُ نفساً من نفوسهمُ
إلا وفي يده ، من نَتْنِها ، عودُ [4]
أكلّما اغتالَ عبدُ السوءِ سيّدَه ،
او خانَه ، فلَهُ في مصرَ تَمهيدُ [5]

---

(١) كميت : أحمر ضارب الى سواد .
(٢) أروح : من الراحة والمعنى : انني قد صرت غنياً ولكن خازني ويدي مستريحان لان اموالي مواعيد كافور وهي لا تقبض ولا تخزن .
(٣) القرى : الضيافة ـ محدود : ممنوع .
(٤) اي ان ارواحهم نتنة من اللؤم ، فاذا عم الموت بقبضها تناولها بعود كما ترفع الجيفة ، لئلا يمسها بيده فتتلطخ بقذارتها .
(٥) أغتال : اخذ على غفلة .

Digitized by Birzeit University Library

صارَ الخَصِيُّ إمامَ الآبقينَ بها ،
فالحرُّ مُستَعبَدٌ ، والعبدُ مَعبُودُ [1]

نامتْ نواطيرُ مصرٍ عن ثَعَالِبِها
فقد بَشِمنَ ، وما تَفنَى العناقيدُ [2]

العبدُ ليسَ لحرٍّ صالحٍ بأخٍ ،
لوْ أنه في ثيابِ الحرِّ مولودُ .

لا تَشتَرِ العبدَ إلاَّ والعصا معهُ ،
إن العبيدَ لأنجاسٌ مناكيدُ !

ما كنتُ احسبُني أحيا الى زمنٍ
يُسيء بي فيه عبد ، وهو محمودُ

ولا توهَّمتُ أن الناسَ قد فُقِدوا
وأن مثلَ أبي البيضاءِ مَوجُودُ ، [3]

وأن ذا الاسودَ المثقوبَ مِشفَرُهُ
تُطيعُهُ ذي العَضاريطُ الرَعاديدُ ! [4]

جَوْعَانُ يأكلُ من زادي ويُمسكُني
حتى يُقالَ : عظيمُ القدرِ مقصودُ

---

(١) الآبق : العبد الهارب من سيده .
(٢) بشم : اخذته تخمة وثقل من شدة الأكل ـ العناقيد : أموال مصر .
(٣) مناكيد ج منكود ، وهو القليل الخير .
(٤) ابا البيضاء : كنى بذلك كافوراً هزءاً وسخرية .
(٥) مشفر : شفة البعير ـ العضاريط ج عضروط وهو الخادم على الطعام ـ والرعاديد رعديد ، الجبناء .

Digitized by Birzeit University Library

وَيلُمِّها خِطَّةً ! ويلُمِّ قابلها !
لمثلها خُلِقَ المَهرِيَّةُ القَودُ (١)
وعندَها لذَّ طعمَ الموتِ شارِبُهُ .
إنَّ المنيَّةَ ، عندَ الذُلِّ ، قنديد . (٢)
من علَّمَ الأسود المخصيَّ مكرمةً ؟
أقومُه البيضُ ، أم آباؤه الصِيد ؟ (٣)
أم أُذنُه ، في يد النَخَّاسِ ، داميةً ،
أم قدرُه ، وهْوَ بالفلسَينِ مردودُ ؟ (٤)
أولى اللئامِ كُوَيفيرٌ بمعذِرةٍ
في كلِّ لؤم ، وبعضُ العذرِ تفنيدُ (٥)
وذاك أن الفُحولَ البيضَ عاجِزةٌ
عن الجميل ، فكيف الخِصْيَةُ السودُ !

عبد حجَّام

من هجائه لكافور ، بعد مغادرة مصر

مِنْ أيَّةِ الطرْقِ يأتي نحوك الكرمُ ؟!
أين المحاجمُ ، يا كافور ، والجلَمُ ؟ (٦)

---

(١) ويلمها : مركبة من ويل لامها ، او من وي لامها ، وتستعمل وي للتفجع ــ المهرية ، الابل ــ القود ، الطوال الظهور .
(٢) قنديد ، عسل قصب السكر .
(٣) الصيد ج اصيد ، الملك العظيم .
(٤) النخاس ، بائع العبيد .
(٥) تفنيد ، لوم وتقريع .
(٦) المحاجم ج محجم ، آلة الحجام يمص بها الدم ــ الجلم ، الموس التي تستعمل في استخراج الدم لتمتصه المحجمة .

Digitized by Birzeit University Library

جـازَ الألى ملكتْ كفّاك قدرَهمُ ،
فعُرّفوا بـكَ ، أن الكلبَ فوقهمُ
سادات كلّ أناس مـن نفوسهمُ ،
وسادةُ المسلمين الاعبدُ القَزَم (١)
أغايةُ الدينِ أن تحفوا شواربكم ؟
يا أُمةً ضحكتْ من جهلها الامم (٢)
ألا فتىً يوردُ الهنديَّ هامتـه
كيما تزولَ شكوكُ الناس والتُهَمُ !

هجاء ابن كيفلغ

يَقْلى مفارقةَ الأكُفِّ قذالُه ، حتى يكادَ على يدٍ يتعمَّمُ (٣)
وجُفونهُ ما تستقرُّ ، كأنها مطروفةٌ ، أوفتْ فيها حِصرمُ
وإذا أشار محدِّثاً ، فكأنه قردٌ يقهقهُ ، أو عجوزٌ تلطمُ
وتراهُ ، أصغرُ ما تراه ، ناطقاً ،
ويكونُ اكذبُ ما يكون ، ويُقسِمُ
ومنَ العداوةِ ما ينالك نفعه ،
ومن الصداقة ما يضرُّ ويؤلمُ ...
... قالوا لنا : مات اسحاقٌ ؛ فقلت لهمْ
هذا الدواءُ الذي يشفي من الحمَقِ

---

(١) الأعبد ج عبد ـ القزم ، اراذل الناس .
(٢) احفى الشوارب ، بالغ في قصها .
(٣) يقلى ، يبغض ـ القذال ، مؤخر الرأس .

Digitized by Birzeit University Library

إن ماتَ ، ماتَ بلا فقدٍ ولا أسفٍ
أوعاشَ ،عاشَ بلا خَلقٍ ولا خُلُقِ

٣ – الرثـــاء

رثـــاء جـــدّته

فيه ألم والتياع على غرور وعنفوان

ألا ، لا أُرِي الأَحداث مدحاً ولاذمّا ،
فما بَطشُها جهلاً ، ولا كفُّها حلما[١]
... لكِ اللهُ ! من مفجوعةٍ بحبيبها ،
قتيلةِ شوقٍ غيرِ مُلحِقها وَصمَا[٢]
أَحنُّ الى الكاس التي شربت بهـــا
وأهوى لمثواها التراب َ ، وما ضمّا
... أتاها كتابي ، بعد يأسٍ وترحةٍ
فماتت سروراً بي ، فمِتُّ بهـا غمّا
حرام على قلبي السرورُ ، فأنّني
أَعُدُّ الذي ماتت به ، بعدها ، سُمّا
تَعجّبُ من لفظي وخطّي ، كأنما
ترى بحروف السطرِ أَغربةً عُصَما[٣]

---

(١) الاحداث : نوب الدهر – كفها ، اي كفها عن البطش .
(٢) الوصم : العيب .
(٣) العصم ج الاعصم : وهو الغراب الذي في جناحه بياض .

Digitized by Birzeit University Library

وَتلثُمهُ ، حتى أصارَ مِدادُه ،
محاجرَ عَينيها ، وانيابها سُحمَا [1]

وكنتُ قبَيْلَ الموت استعظمُ النوى ،
فقدصارتِ الصُغرى ، التي كانتِ العظمى

هبيني أخذتُ الثارفيك من العِدى ،
فكيف بأخذ الثار ، فيك ، من الحمَّى

وما انسدَّت الدنيا عليَّ لضيقها ،
ولكنَّ طرفاً ، لا أراك به ، اعمى

... ولو لم تكوني بنت اكرمِ والدٍ
لكان اباك الضخم ، كونُك لي أُمّا

لَئِن لذَّ يومُ الشامتين بيومها ،
لقد وَلدَت مني ، لأنفهم رغمَا

تَغرَّبَ لا مستعظماً غير نفسه
ولا قابلاً إلاَّ لخالقه حُكما

ولا سالكاً إلاَّ فؤاد عجاجة ،
ولا واجداً إلاَّ لمكرُمةِ طعما [2]

يقولون لي : ما انت في كل بلدة ؟
وما تبتغي ؟ ما ابتغي جلَّ ان يُسمَى

---

(١) المداد الحبر ـ المحاجر ، ما حول العينين ـ السحم ج الاسحم ، الاسود .

(٢) عجاجة : غبار الحرب .

Digitized by Birzeit University Library

وما الجمعُ بين الماءِ والنارِ ، في يدي
بأصعَبَ مِن أن أجمعَ الجَدَّ والفَهما[1]
وإني لَمِن قـــومٍ كأنَّ نفوسَهُم
بها أنَفٌ ان تسكُنَ اللحمَ والعظما
كذا انا يادنيا ! اذا شئتِ فاذهبي !
ويانفسِ ، زيدي في كرائهها ، قُدمَا[2]
فلا عَبَرتْ بي ساعةٌ لا تُعِزُّني !
ولا صَحِبَتْني مُهجةٌ تَقبَلُ الظُلما

رثاء ام سيف الدولة

وفيهـا تعزية للامير ، الى خطرات
فلسفية في فناء الحياة وسطوة الموت ،

نُعِدُّ المَشرَفِيَّةَ والعـــوالي
وتقتُلُنا المنونُ بلا قِتـالِ[3]
ونَرتبطُ السوابِقَ مُقرَباتٍ ،
وما يُنجِينَ من خبب الليالي[4]
ومَن لم يعشق الدنيـا قديماً ؟
ولكن لا سبيل الى الوصال !

---

(١) الجد : الحظ .
(٢) كرائهها : نوازلها المكروهة ـ القدم : التقدم .
(٣) نعد : ندخر ، نتخذ عدة ـ المشرفية : السيوف ـ العوالي : الرماح ـ المنون : الموت .
(٤) السوابق : صفة للخيل ـ مقربات : قريبة منا ـ الخبب :

Digitized by Birzeit University Library

نصيبُك في حياتك من حبيب
نصيبُك في منامك ، من خيالِ !
رماني الدهرُ بالارزاء حتى ،
فؤادي في غِشاءٍ من نبالِ (١)
فصِرْتُ اذا اصابتني سِهامٌ
تكسَّرَتِ النِصالُ على النِصالِ
... وليست كالإناث ، ولا اللواتي
تُعَدّ لها القبورُ من الحِجالِ (٢)
مشى الامراءُ حَوْليها حُفَاةً
كأن المروَ من زفٍّ الرئالِ (٣)
وأبرَزَتِ الخدورُ مُخَبَّآتٍ
يَضَعْنَ النِقْسَ أمكِنةَ الغَوالي (٤)
أتتهُنَّ المُصيبةُ غافلاتٍ فدمعُ الحزنِ في دمع الدلال
ولو كان النساءُ كمن فقدنا لفُضِّلتِ النساءُ على الرجال
وما التأنيثُ لاسم الشمسِ عيبٌ ولا التذكيرُ فخرٌ للهلالَ
.. يدفنُ بعضنا بعضاً ، وتمشي اواخرنا على هام الاوالي (٥)

نوع من العدو يكون بالمراوحة بين اليدين والرجلين .
(١) الارزاء : المصائب .
(٢) الحجال : ج الحجلة : الستر .
(٣) المرو : الحجارة الصلبة – الزف : صغار الريش – الرئال ج الرأل : ولد النعام .
(٤) النقس : الحبر – الغوالي : الطيوب .
(٥) هام ج هامة : رأس - الأوالي : الاوائل

Digitized by Birzeit University Library

أسيفَ الدولة استنجدْ بصبرٍ ... وكيف بمثل صبرك للجبال
وأنت تُعلِّمُ النـاس التعزّي ... وخوض الموت في الحرب السجال
وحالات الزمان عليك شتى ... وحالك واحدٌ في كل حال (١)
رأيتك في الذين أرى ملوكاً ... كأنك مستقيمٌ في مُحال (٢)

رثاء خولة اخت سيف الدولة

ورد الشاعر خبر موتها سنة ٣٥٢ وهو في الكوفة ، فكتب الى سيف الدولة يعزيه

يا أُختَ خيرِ أَخٍ ، يا بنتَ خيرِ أَبِ
كِنَايةً بهما عن أشرف النَسَبِ ...
غَدَرتَ يا موتُ كم أفنيتَ من عَدَدٍ
بمن أصبتَ ! وكم أسكَتَّ من لَجَبِ
وكم صَحِبتَ أخاها في مُنازلةٍ !
وكم سألتَ ! فلم يَبخَلْ ولم تَخِبِ (٣)
طوى الجزيرةَ ، حتى جاءني ، خبرٌ
فَزِعتُ فيه بآمالي الى الكَذِبِ (٤)

---

(١) شتى : مختلفة .
(٢) محال : معوج .
(٣) معنى هذا البيت وسابقه : غدرت يا موت بسيف الدولة ، فقد طالما افنيت بواسطته العدد الكثير ، واسكت الجيوش الغفيرة ، وصحبته في الحروب تسأله نفوس الاعداء ، فما بخل عليك مرة . فقد كان من حقك ان ترعى ذمته ولا تصيبه بمن يعز عليه .
(٤) الجزيرة : ما بين دجلة والفرات ـ فزع : لجأ .

Digitized by Birzeit University Library

حتى إذا لم يَدعْ لي صدقُـــه أملاً ،
شرِقتُ بالدمعِ حتى كادَ يشرَقُ بي[1]

أرى العراقَ طويلَ الليلِ مُذ نُعِيَتْ
فكيف ليـــلُ فتى الفتيانِ في حلب

يَظُنُّ أن فؤادي غيرُ مُلتَهِبٍ ،
وأنَّ دمعَ جفوني غيرُ مُنسكِبِ

...وإن تكنْ خُلِقَتْ أُنثى فقد خُلِقت
كريمةً ، غيرَ أُنثى العقل والحَسَب[2]

تَخالَفَ الناسُ حتى لا اتّفاقَ لهم
إلاّ على شَجَبٍ ، والخُلْفُ في الشَجَبِ[3]

فقيل تَخلُصُ نفسُ المرءِ سالمـــةً ،
وقيل تشرَكُ جسمَ المرءِ في العطبِ

ومَن تفكَّرَ في الدنيـا ومُهجتِهِ
أقامَهُ الفكرُ بين العَجزِ والتعـبِ

رثاء ابي شجاع فاتك

قال يرثيه بعد خروجه من مصر

الحزنُ يُقلِقُ ، والتجمُّـلُ يردعُ ،
والدمـعُ بينهما عَصِيٌّ طَيِّـعُ[4]

---

(١) شرق : غص
(٢) الحسب : ما ينشئه الانسان لنفسه من مآثر .
(٣) الشجب : الهلاك ـ الخلف : الاختلاف .
(٤) التجمل : التصبر .

Digitized by Birzeit University Library

يتنازَعانِ دموعَ عينٍ مُسَهَّدٍ ،
هذا يجيء بها ، وهذا يَرجِعُ [1]
... يا مَن يُبَدِّلُ كلَّ يومٍ حُلَّةً
أنسًى رضيتَ بحُلَّةٍ لا تُنْزَعُ [2]
ما زِلتَ تخلَعُها على من شاءَها ،
حتى لبِستَ ، اليومَ ، ما لا تخلَعُ
مَن للمَحافلِ ، والجحافلِ ، والسُرى !
فَقَدَت بفقدِكَ نَيِّراً لا يَطلُعُ [3]
ومن اتَّخذت على الضيوفِ خليفةً ؟
ضاعوا ؛ ومثلُكَ لا يكاد يُضَيَّعُ
... قد كان أسرَعَ فارسٍ في طعنةٍ
فرساً . ولكنَّ المنيـــة أسرعُ
لا قلَّبت أيدي الفوارسِ بعـــده
رمحاً ! ولا حَمَلَت جواداً أربَـــعُ

---

(١) المسهد : الذي حمل على السهاد وهو السهر .
(٢) الحلة : اللباس ـ انى بمعنى كيف .
(٣) المحافل ج محفل وهو مجمع الناس ـ الجحافل ج جحفل وهو الجيش ـ السرى : مشي الليل .

Digitized by Birzeit University Library

شاعر الحكمة

نعرض اولا بضع صفحات من الرسالة الحاتمية ، وقد تناول فيها صاحبها ما رآه من توافق في المعاني الحكمية بين المتنبي وارسطو .

نقلا عن مخطوطة في دار الكتب اللبنانية رقم ٣٤٣ .

قال ارسطو : اذا كانت الشهوة فوق القدرة ، كان هلاك الجسم دون بلوغها .

وقال ابو الطيب :

واذا كانتِ النفوسُ كِبَاراً تَعِبتْ في مُرادِها الأجسامُ

قال ارسطو : روم نقل الطباع عن ذوي الاطماع ، شديد الامتناع .

وقال ابو الطيب :

يُرادُ من القلب نسيانُكم وتأبى الطباع على الناقلِ

Digitized by Birzeit University Library

قال ارسطو : مَنْ لم يُرِدْك لنفسه فهو النائي عنك وان تباعدتَ أنت عنه .

وقال المتنبي :

إذا ترحَّلت عن قوم وقد قدروا ان لا تفارقهم فالراحلون هُمُ

قال ارسطو : العيان شاهد لنفسه ، والأخبار يدخل عليها الزيادة والنقصان .

وقال المتنبي : خُذْ ما تراه ودَعْ شيئاً سمعت به ...

قال ارسطو : يُفسَدُ العضو لصلاح غيره من الاعضاء ، كالكي والفصد اللذان (كذا) يفسدان غيرهما .

وقال المتنبي :

لعلَّ عتَبك محمودٌ عواقبهُ فربما صحَّتِ الأجسامُ بالعللِ

قال ارسطو : من تخلى عن الظلم بظاهره وعفَّت جوارحه ، وكان مساكناً له بحواسه فهو ظالم .

وقال المتنبي :

وإطراقُ طرفِ العينِ ليس بنافعٍ
إذا كان طرفُ القلبِ ليس بُمطرِقِ

قال ارسطو : عِلَلُ الافهام أشدُّ من عللِ الاجسام .

وقال ابو الطيب :

يهون علينا ان تُصابَ جسومنا وتسلم اعراض لنا وعقول

Digitized by Birzeit University Library

قال ارسطو : العاقل لا يساكن شهوة الطبع لعلمه بزوالها؛ والجاهل يظن انها خالدة له وهو باقٍ عليها ؛ فهذا يشقى بعقله وهذا ينعم بجهله .

وقال ابو الطيب :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله واخو الجهالة، في الشقاوة، ينعم

قال ارسطو : الصبر على مضض السياسة ، يُنالُ به شرف الرئاسة .

وقال ابو الطيب :

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يراق على جوانبه الدم

قال ارسطو : الظلم من طبع النفوس إنما يصدّها عن ذلك احدى علتين : علة دينية ... او علة سياسية لخوف الانتقام .

وقال ابو الطيب :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفةٍ ، فلعلة ، لا يظلم

قال ارسطو : الجبن ذلة كامنة في نفس الحيوان ، فإذا خلا بنفسه اظهر شجاعة .

وقال ابو الطيب :

واذا ما خلا الجبان بأرض طلب الطعن ، وحده، والنزالا

قال ارسطو : الغلبة بطبع الحياة ، والنفس تحب ان تأخذ الشيء بالغلبة لا بالمسألة .

Digitized by Birzeit University Library

وقال ابو الطيب :

من أطاق التماس شيء غلابـاً واغتصابـاً لم يلتمسه سؤالا

قال ارسطو : إذا لم تصن بالمال ابناء الجنس ، او تقتل اعداء النفس ، فما المنفعة به .

وقال ابو الطيب :

لمن تطلب الدنيا اذا لم ترد بها سرور صديق ، او إساءة مجرم

قال ارسطو : اتعب الناس من قصرت مقدرته ، وأتسعت مروءته .

وقال ابو الطيب :

واتعب خلق الله من زاد همه وقصّر عمّا تشتهي النفسُ وجدُه

قال ارسطو : الفرق بين الحلم والعجز ، ان الحلم لا يكون إلاّ عن قدرة ، والعجز لا يكون الا عن ضعف ؛ فليس للعاجز ان يسمّى باسم الحليم .

وقال ابو الطيب :

كل حلمٍ أتى بغير اقتدار ، حجةٌ لاجئٌ اليها اللئامُ

قال ارسطو : على قدر الهمم تكون الهموم .

وقال ابو الطيب : يخلو من الهم اخلاهم من الفطن .

قال ارسطو : حلول الموت في عظيم الامور كحلوله في

Digitized by Birzeit University Library

صغيرها .

وقال ابو الطيب :

فطعم الموت في أمرٍ حقـــير كطعمِ الموتِ في أمرٍ عظـــيم

❁

قال ارسطو : عداوة العاقل خير من صداقة الجاهل .

وقال المتنبي :

ومن العداوة ما ينالك نفعه ومن الصداقة ما يضرّ ويؤلم

❁

قال ارسطو : من أفنى مدته في جمع المال ، فقد اودى بنفسه الى الفقر .

وقال المتنبي :

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقرٍ ، فالذي فعلَ الفقرُ

❁

قال ارسطو : اعجز العجزة من قدر ان يزيل العجز عن نفسه فلم يفعل .

وقال المتنبي :

ولم أرَ في عيوب الناس شيئاً كنقص القادرينَ على التمامِ

الخ . . . .

وإذا كنّا نجد التوافق الغريب بين الشاعر العربي والفيلسوف الإغريقي ، فيجب ألاّ يدفعنا ذلك الى القـــول بأن ابا الطيب « نقل » ارسطو . والحق ان ثقافة المتنبي كانت لغوية عربية اكثر منها يونانية ، وان حكم المتنبي جاءت بغالبها نتيجة شعوره النفساني

Digitized by Birzeit University Library

وملاحظاته وتجاربه . وليس من الضروري كلما التقى اثنان على صعيد فكري واحد في الموضوعات الاختبارية العامة، ان يكون المتأخر قد سرق عن المتقدم . واننا لنجد عند شعراء الجاهلية وصدر الاسلام طائفة من الاشعار الحكمية والامثال ، تلتقي مع الفلسفة اليونانية التي ما عرفها العرب في ذلك العهد البعيد .

حكم في ابيات

ذلّ من يغبط الذليل بعيشٍ ربّ عيشٍ اخفّ منه احتمالُ

●

واحتمال الاذى ورؤية جانيه م غذاءٌ تضوى به الاجسام

●

كلّ مالم يكن، من الصعب في الانفس م
سهلٌ فيها ، اذا هو كانا

●

من يَهُنْ يَسهلِ الهوان عليه ما لجرح بميّت إيلامُ

●

كريشة في مهب الريح ساقطة لا تستقر على حال من القلق

●

ومن سرّ اهل الارضِ، ثم بكى أسىً،
بكى بعيون سرّها ، وقلوبِ

●

Digitized by Birzeit University Library

فأحسنُ وجه في الورى وجه محسنٍ
وأيمنُ كفٍّ ، فيهم ، كفُ مُنعِمِ

●

وما الحسن في وجـــه الفتى شرفاً له
اذا لم يكن في فعـــله والخلائق

●

تريدين لقيان المعالي رخيصة ولابدّ دون الشهد من إبر النحل

●

اذا اعتاد الفتى خوض المنايا، فأهوَنُ ما يمرُّ به ، الوحولُ

أمثال في نصف بيت

مصائب قوم عند قومٍ فوائد
وبضدّها تتميَّز الاشيـــاءُ
في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحلٍ
انا الغريق فما خوفي من البللِ
فإنّ في الخمر معنى ليس في العنب
ومنفعـة الغوثِ قبـــل العطب
ليس التكحّلُ في العينين كالكحل
يا أمة ضحكت من جهلها الامم
أعلى الممالك ما يبنى على الاســـل

Digitized by Birzeit University Library

جوانب مختلفة

١ – كيد الحساد

سوى وَجعِ الحسّادِ داوٍ، فإنه إذا حلَّ في قلبٍ فليس يحولُ
ولا تطمعَن من حاسد في مَودّة وإن كنت تُبديها له وتُنيلُ

●

وأظلمُ اهلِ الظلم من بات حاسداً لمن بات في نعمائه يتقلّبُ

●

غَضبُ الحسودِ اذا لقيتك راضياً
رُزءٌ أخفُّ عليَّ من ان يوزنا

●

بَلغتُ بسيف الدولةِ النورِ رتبةً
أنرتُ بها ما بينَ غربٍ ومَشرقِ
إذا شاءَ ان يَلهو بلحيةِ احمقٍ أراهُ غباري ثم قال له الحقِ
وما كمَدُ الحسّادِ شيء قصدتُه ولكنّه من يزحم البحرَ يغرقِ

●

Digitized by Birzeit University Library

وللحسادِ عذرٌ أن يشحّوا على نظري اليه ، وان يذوبوا
فإني قد وصلتُ الى مكانٍ عليــه تحسد الحدقَ القلوبُ

٢ ــ عصبية عربية

وإنّما الناسُ بالملوك ومـــا تُفلِحُ عُربٌ ملوكُهُم عَجَمُ
لا أدب عندهم،ولا حَسَبٌ ، ولا عهودٌ لهـــم ، ولا ذِمَمُ
في كلِّ أرضٍ وَطِئتُها أُمَمٌ تُرعَى بعبدٍ ، كأنّها غَنَمُ
يستخشن الخزَّ حينَ يلمُسه وكان يُبرى بظُفره القَلَمُ

Digitized by Birzeit University Library

بعض المراجع

طه حسين	مع ابي الطيب
عبدالوهاب عزام	ذكرى ابي الطيب
احمد الشايب	ابحاث ومقالات
عباس محمود العقاد	مطالعات في الكتب والحياة
شوقي ضيف	الفن ومذاهبه في الشعر العربي
ابراهيم عبد القادر المازني	حصاد الهشيم
سامي الكيالي	سيف الدولة وعصر الحمدانيين
احمد امين	فيض الخاطر ـ ظهر الاسلام
علي ادهم	على هامش الادب والنقد
فؤاد افرام البستاني	الروائع (١١ و ١٢)
الثعالبي (ابو منصور)	يتيمة الدهر
الحاتمي	الرسالة الحاتمية
الشيخ ابرهيم اليازجي	تذييل ديوان المتنبي
القاضي الجرجاني	الوساطة بين المتنبي وخصومه
الصاحب بن عباد	الكشف عن مساوىء شعر المتنبي
المقتطف (محمود شاكر)	عدد خاص ، كانون الثاني سنة ١٩٣٦
ديوان ابي الطيب	شرح اليازجي

R. BLACHERE : Abou-t-Tayyîb Al-Motànàbb un poète arabe du IVe siècle de l'Hégire

Digitized by Birzeit University Library

فهرس

تمهيد ٥

عصره ٧

الحياة السياسية ٨

الحياة الاجتماعية ١٠

الحياة الفكرية ١٢

سيرته ١٤

حياته ١٤

ديوانه ٢٥

الشاعر الذاتي ٢٨

الوجدانيات ٢٨

المفاخر ٣٤

الغزل ٣٨

شاعر القصور ٤٠

المديح ٤٠

Digitized by Birzeit University Library

الهجاء	٦٤
الرثاء	٦٧
العصبية العربية	٧٠
شاعر الحكمة	٧٣
فلسفة القوة	٧٣
آراء وأمثال	٧٧
جوانب مختلفة	٨٠
فنه الشعري	٨٠
بين خصومه وأنصاره	٨٥
من اقوال الادباء فيه	٨٧
نماذج من شعره	٨٩
الشاعر الذاتي	٩٠
شاعر القصور	١٠٦
شاعر الحكمة	١٣٢
جوانب مختلفة	١٣٩

الغلاف بريشة :
شموط اخوان

Digitized by Birzeit University Library

أعلام الفكر العربي

صدر منها :

١ – ابو الطيب المتنبي تأليف : جوزف الهاشم

٢ – ابو فراس الحمداني » : احمد ابو حاقه

تحت الطبع :

٣ – امرؤ القيس » : وئيف خوري

٤ – ابن رشد » : عبده الحاو

ثمن الجزء ١٢٥ ق.ل.س

منشورات

دار الشرق الجديد

بيروت

مكتبة جامعة بيرزيت

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library